المبحث الثاني:

فتح بيت المقدس

تعتبر "حطين" معركة حاسمة في تاريخ الحرب الإسلامية الصليبية، إذ فقدت مملكة بيت المقدس قواتها العسكرية الرئيسية في هذه المعركة، كما تم تدمير أكبر جيش صليبي أمكن جمعه منذ قيام الكيان الصليبي وأضحى القائد المنتصر في هذه المعركة، على الصليبيين: صاحب السيادة على العالم الإسلامي بأسره [1] وبعد حطين لم يعد للصليبيين في المملكة المقدسة خصوصاً، قوة يتباهون بها، لذا، ما إن استسلمت عسقلان وغزة لصلاح الدين في أيلول/سبتمبر من العام نفسه، حتى قرر صلاح الدين أن ينطلق بجيشه الذي أعاد جمعه من كل المنطقة في جنوب فلسطين، حيث كان قد نشره منذ سنوات ليستكمل توحيد بلاد الشام وما إن اتجه بهذا الجيش شمالاً نحو القدس لفتحها عنوة وبالسيف، حتى بدأت مدينة القدس تستعد لمقارعة القائد المسلم الذي جاء يتحدى مناعتها وجبروتها بعد ثمانية وثمانين عاماً من احتلال الصليبيين لها [2].

أولاً استعدادات الصليبيين داخل بيت المقدس:

كان عدد المقاتلين الصليبيين في القدس "يزيد على ستين ألفاً" من الخيالة "عدا النساء والصبيان" بحسبما ذكر"أبو شامة" في كتاب الروضتين [3]. ويبدو أن عدد سكان المدينة، وبالتالي عدد المقاتلين فيها قد ازداد بسبب توافد اللاجئين إليها من المدن والقرى الفلسطينية المجاورة، والتي تعرضت للأخطار خلال الحرب الإسلامية الصليبية، ويذكر "رنسيمان" أن معظم هؤلاء اللاجئين لم يكن يتقن فن القتال، وكان الرجال فيهم قلة ضئيلة إذ كان مقابل كل رجل "خمسون امرأة وطفل"، ولم يكن في المدينة سوى "فارسين اثنين" مما حدا بباليان إلى أن "ينصّب فارساً، كل صبي تجاوز السادسة عشر من عمره، وانحدر من أسرة نبيلة" ثم جنّد كل الذكور الذين بلغوا هذه السن، ووزع الأسلحة على كل من استطاع أن يحمل السلاح[4]، ونشر المقاتلين على الأسوار وفي الحصون، ونصب المجانيق، وحفر الخنادق، يقول أبو شامة في ذلك: ونصبوا "الصليبيون" على كل نيق منجنيقاً، وحفروا في الخندق حفراً عميقاً، وشادوا في كل جانب ركناً وثيقاً، وفرّقوا

---

(1) حروب القدس في التاريخ الإسلامي والعربي ص 94

(2) المصدر نفسه ص 94.

(3) كتاب الروضتين (92/2).

(4) رنسيمان (749/2).

على كل برج فريقاً [1]. إلا أن ابن الأثير يخالف رنسيمان في عدد الفرسان الذين كانوا في القدس قبل تجنيد الصبية النبلاء وتنصيبهم فرساناً، فيذكر أنه كان في القدس "من خلُص" من فرسان الصليبيين "في حطين" وأن خلقاً كبيراً اجتمعوا في المدينة، من أهل تلك النواحي، عسقلان وغيرها، وقد صعد الجميع على الأسوار بحّدهم وحديدهم، حيث نصبوا المجانيق وحصّنوا تلك الأسوار، بما وجدوا إليه سبيلاً [2].

ثانياً: خطة صلاح الدين العسكرية:

1 - الخطوات التي سبقت فتح القدس:

تجلت مقدرة صلاح الدين الحربية في تلك الخطة العسكرية التي اتبعها في جهاده ضد الصليبيين لاسترداد بيت المقدس، وقامت تلك الخطة على تكوين جبهة إسلامية موحدة تضم مصر وبلاد الشام وأجزاء من العراق، ثم منازلة الصليبيين في عقر دارهم، وإنزال ضربة قوية بهم، كما حدث في معركة حطين. وتلا ذلك مسيره إلى مدن الساحل الشامي لإضعاف الصليبيين مادياً ومعنوياً. ولو اتجه صلاح الدين عقب انتصاره في حطين إلى بيت المقدس لتمكن من دخوله بدون عناء، إلا أن استيلاءه على بيت المقدس قبل السيطرة على مدن الساحل لن يضمن له الاستقرار التام في بيت المقدس، إذ كان من المتوقع قيام الغرب الأوروبي بإرسال الجيوش الصليبية إلى موانئ الشام، ومجيء فرسانه زرافات ووحدانا، والدخول مع صلاح الدين في معارك حامية لاسترداد بيت المقدس الذي به كنيسة القيامة لاعتقادهم الباطل كما يقول العماد الأصفهاني أن: فيها صلب المسيح، وقرب الذبيح وتجسد اللاهوت، وتأله الناسوت وقام الصليب [3]، وبفضل الله ثم - تلك الخطة العسكرية التي نفذها صلاح الدين بسيطرته على الشريط الساحلي، عزل بيت المقدس ومنع وصول الإمدادات إليه وقطع كل أمل للصليبيين سواء في الغرب الأوروبي أو في بلاد الشام في الوصول إلى بيت المقدس، وإنقاذه من جيوش المسلمين، ولما استرد صلاح الدين من الصليبيين عسقلان وغيرها من البلاد، المحيطة ببيت المقدس، وضمن بذلك أحكام العزلة على مملكة بيت المقدس، شمر عن ساق الجد والاجتهاد وعزم على قصد بيت المقدس، فأصدر أوامره واجتمعت عليه جميع العساكر الإسلامية التي كانت متفرقة في الساحل[4].

---

(1) كتاب الروضتين (93/2).
(2) حروب القدس في التاريخ الإسلامي والعربي.
(3) المصدر نفسه ص 96.
(4) النوادر السلطانية ص 81 صلاح الدين والصليبيون ص 208.

2 - البعد الإعلامي:

كانت تلك الحشود العسكرية الإسلامية قد شاركت صلاح الدين في معركة حطين، واستغل صلاح الدين تواجدها في الشام قبل عودتها إلى إقطاعاتها في السيطرة على مدن وموانئ الساحل، وحرص صلاح الدين على أن يسبق مسيره إلى بيت المقدس حملة إعلامية إلى كافة أطراف العالم الإسلامي بقصد استنفار المسلمين للجهاد، الأمر الذي ثارت معه عزائم المسلمين بالعزم على الجهاد والاشتراك في تطهير تلك البقعة المقدسة أولى القبلتين وثالث الحرمين، ومسرى محمد ﷺ. وذكر أبو شامة وابن كثير أن المسلمين ما أن بلغهم ما منّ الله به على صلاح الدين من فتوح الساحل الشامي، ومن ثم قصده المسير إلى بيت المقدس، حتى توافدوا عليه، من كل مكان يتقدمهم العلماء والفقهاء، الذين قدموا للتطوع في الجهاد لتصفية الوجود الصليبي من بلاد الشام [1].

3 - استدعاء القوات المصرية:

ومن ناحية أخرى فقد استدعى صلاح الدين القوات المصرية أثناء قيامه بالاستيلاء على الساحل لمساعدته في الاستيلاء على المدن والقلاع الجنوبية واجتمع بابنه الملك العزيز عثمان في عسقلان فقرت به عينه واعتضد بعضده، ويبدو أن صلاح الدين على الرغم من سيطرته التامة على مدن وموانئ الساحل الشامي كان يتخوف من هجوم صليبي من الغرب، أثناء تقدمه إلى بيت المقدس، لذلك أمر الأساطيل المنصورة بالمسير للمشاركة في الجهاد، فسارت إليه من مصر يتقدمها الحاجب لؤلؤ وأخذت تجوب البحر وتقطع الطريق على سفن الصليبيين ومراكبهم في الوقت الذي كانت فيه الإمدادات تصل من مصر إلى الشام براً وبحراً بكل سهولة وعندما علم صلاح الدين بأن مدينة بيت المقدس قد أخذت قسطاً وافراً من التحصين، لما تتمتع به من مكانة عظيمة في نفوس الصليبيين حرص على إحضار أدوات الحصار الكافية لاقتحام أسوارها ذات الأبراج العالية [2]، فأحضر معه المنجنيقات والعرادات والنفاطات والقطاعات وعدد النقوب وغيرها من الأدوات اللازمة لدك الأسوار ونقبها ثم حشو تلك النقوب بالحطب والنفط وإشعال النيران فيها، لفتح ثغرات في الأسوار

(1) البداية والنهاية نقلاً عن صلاح الدين والصليبيون ص 209.
(2) وفيات الأعيان (184/7) صلاح الدين والصليبيون ص 210.

يمكن من خلالها اقتحام الأسوار ودخول المدينة [1].

4- الحصار والقتال:

كان الصليبيون قد بدأوا القتال قبل تمركز جيش المسلمين حول أسوار المدينة، أي قبل 20 أيلول وذلك عندما تقدمت مفرزة من طليعة الجيش الإسلامي نحو الأسوار بقيادة الأمير جمال الدين شروين بن حسن الزرازي فخرجت إليها مفرزة من حامية المدينة فقاتلتها وهزمتها، وقتلت أميرها [2]، وقد حدث هذا قبل أن يتمركز صلاح الدين بجيشه في الجانب الغربي من السور ومهما يكن من أمر فقد بدأ صلاح الدين قتاله الفعلي ضد العدو المتحصن داخل أسوار المدينة في صباح 26 أيلول سبتمبر 1187م، 21 رجب 583هـ فتقدم بجيشه نحو الأسوار بغطاء كثيف من المدفعية التي كانت سائدة في ذلك العصر "وهي المجانيق" وكان عددها 12 منجنيقاً كبيراً ترمي الحجارة الكبيرة، وتقدم، تحت هذا العطاء أيضاً، النقابون الذين بدأوا ينقبون في السور ودار القتال عنيفاً بين الفريقين، حامية المدينة تحاول أن تنال من المسلمين، وتوقف تقدمهم، بسهامها ونبالها، ومجانيقها من على الأسوار، ومن التحصينات، وهي تقاتل بعنف وضراوة لا مثيل لهما، بينما كان فرسانها يخرجون إلى ظاهر البلد، يقاتلون ويبارزون، إلا أن ذلك لم يكن ليثني المسلمين عن تقدمهم ونقبهم للأسوار وتدميرها وتدمير التحصينات بمجانيقهم وقد قتل في هذه المعركة من الفريقين الكثير، وممن قتل الأمير عز الدين عيسى بن مالك وكان والده صاحب قعلة جعبر [3].

واستمر القتال عنيفاً بعد ذلك، ويصف "غروسيه" المعركة التي دارت عند أسوار المدينة بأنها كانت من الضراوة، مالم يسمع بمثله، كما كانت عطشاً حقيقياً للشهادة. وهو يستطرد: لقد كانت المعارك الأكثر ضراوة، كما لم يشهده إنسان، فكل رجل من الجيشين كان ينظر إلى الصراع كفعل ديني والتزام حتمي [4]. وقد كان تفوق صلاح الدين في المدفعية إلى درجة أن سقوط المدينة كان حتمياً، وأن النقابين العاملين تحت غطاء من حجارة المجانيق نجحوا في فتح ثغرة في جدار السور[5]، وقرر الفرسان والنبلاء الصليبيون القيام بهجوم

---

(1) صلاح الدين والصليبيون ص 210.
(2) كتاب الروضتين (92/2).
(3) حروب القدس في التاريخ الإسلامي والعربي ص 100.
(4) حروب القدس في التاريخ الإسلامي والعربي ص 100.
(5) المصدر نفسه ص 100.

انتحاري على المسلمين خارج الأسوار إلا أن بطريقهم "هرقل" ردعهم عن ذلك بعد أن أقنعهم أن "عملهم البطولي" هذا لن تكون سوى التخلي عن النساء والأطفال للعدو بلا دفاع [1].

5 - الهجوم الحاسم:

بعد هذا القتال العنيف قرر صلاح الدين أن يشن هجوماً حاسماً على المدينة وكثف رمايات المجانيق، مغطياً تقدم المهاجمين بحجارتها، وسبيل من السهام والنبال يطلقها الرماة نحو المدافعين عن السور والحصون لكي تشل مقاومتهم، مما جعل أولئك المدافعين يتراجعون عن مراكزهم، بينما تقدم المسلمون واجتازوا الخندق الخارجي المحفور حول السور ثم التصقوا وعملوا به نقباً وتهديماً واشتد قصف المجانيق وتوالى رمي السهام والنبال من الرماة المتقدمين خلف المهاجمين يحمونهم، ونجح المهاجمون في فتح ثغرات عديدة في السور الذي أوشك أن يصبح ملكاً للمهاجمين وفي وقت ما من تاريخ 29أيلول/سبتمبر 1187، استطاع المهاجمون فتح "ثغرة كبيرة" في السور نفذ منها المسلمون ورفعوا راياتهم عليه، إلا أن المدافعين ما لبثوا أن احتشدوا وردوا المسلمين عن السور، ورغم ذلك فقد أيقن المدافعون أن لا جدوى من دفاعهم، وأنهم مشرفون على الهلاك، بل إنهم هالكون حتما إن هم استمروا في عنادهم [2] وتزاحم الناس في الكنائس للصلاة والاعتراف بذنوبهم، وأخذوا يضربون أنفسهم بالحجارة ويرجون المدد والرحمة من الله، وقطعت النساء شعور بناتهن على أمل استثارة الرجال لحمايتهن من سبي المسلمين لهن [3].

6 - المفاوضات وتسليم القدس إلى صلاح الدين:

اتفق الصليبيون على إرسال الرسل بطلب الآمال مقابل تسليم المدينة لصلاح الدين، وامتنع صلاح الدين عن إجابتهم إلى ذلك وقال: لا أفعل بكم إلا كما فعلتم بأهله حين ملكتموه سنة إحدى وتسعين وأربعمائة من القتل والسبي وجزاء السيئة بمثلها [4]، فلما أعاد صلاح الدين رسل الصليبيين خائبين محرومين اجتمع الصليبيون مرة أخرى داخل بيت المقدس، وحاولوا القيام بهجمات مفاجئة ضد المسلمين ولكن البطريرك هرقل اعترض على ذلك وأوضح لهم أنهم لو فعلوا ذلك فإنهم سيسوقون نساءهم وأطفالهم إلى

---

(1) المصدر نفسه ص 101.
(2) المصدر نفسه ص 101.
(3) مفرج الكروب (213/2) صلاح الدين والصليبيون ص 213.
(4) الكامل في الأثر نقلاً عن صلاح الدين والصليبيون ص 213.

العبودية، وحرضهم على طلب الأمان من صلاح الدين، فأرسل باليان دي إبلين إلى صلاح الدين طالباً الأمان لنفسه، ليحضر عنده للتفاوض، فأجابه صلاح الدين إلى ذلك وحضر باليان عنده وسأله الأمان للصليبيين، فأصر صلاح الدين على فتح المدينة بالسيف، فلما يئس باليان من ذلك أراد - أن يستثير عطف صلاح الدين بالتهديد بقتل النساء والأطفال وأسرى المسلمين، حيث قال له: أيها السلطان اعلم أننا في هذه المدينة خلق كثير لا يعلمه إلا الله، وإنما يفترون عن القتال رجاء الأمان ظناً منهم أنك تجيبهم إليه، كما أجبت غيرهم، وهم يكرهون الموت ويرغبون في الحياة، فإذا رأينا لابد منه فوالله لنقتلن أبناءنا ونساءنا ولنحرقن أموالنا وأمتعتنا ولا نترككم تغنمون منها ديناراً واحداً ولادرهماً، ولا تسبون وتأسرون رجلاً ولا امرأة. وإذا فرغنا من ذلك أخرجنا الصخرة والمسجد الأقصى وغيرهما من المواضع ثم نقتل من عندنا من أسارى المسلمين وهم خمسة آلاف أسير، ولا نترك الرجل حتى يقتل أمثاله ونموت أعزاء ونظفر كراما [1] واستشار صلاح الدين أصحابه، فأوضحوا له أنه يكفي للبر بقسمه أن يستولي على بيت المقدس بحد السيف أن تستسلم المدينة بشروط كأنها سقطت بالقتال، وفي هذه الحالة يعتبر سكان المدينة أسرى حرب [2]، فأجابهم صلاح الدين إلى الأمان مقابل تسليم بيت المقدس ووافق على مغادرة الصليبيين المدينة مقابل فداء يدفعونه، فجعل على الرجل عشرة دنانير يستوي في ذلك الغني والفقير وعلى المرأة خمسة دنانير [3]. ويضيف كل من سبط بن الجوزي والعماد الحنبلي أن صلاح الدين جعل على الصبي أربعة دنانير [4] أما بالنسبة للطفل فقد اختلف فيما فرض عليه فذهب البعض إلى أن فديته دينار واحد [5]، في حين يرى البعض الآخر أن فديته ديناران [6].

ويبدو أن الرأي الأول أرجح بدليل اجماع المراجع الصليبية على ذلك. أما الفقراء والمعدمون فقد وافق صلاح الدين على أن يدفع باليان مقابل إطلاق سراحهم، مبلغاً إجمالياً قدره ثلاثون ألف دينار، وحدد صلاح الدين لباليان مدة أربعين يوماً، فمن أدى فديته خلالها أطلق سراحه، ومن بقي بعدها صار مملوكاً، وسلمت المدينة يوم الجمعية

(1) مفرج الكروب (214/2)، صلاح الدين والصليبيون ص 214.
(2) صلاح الدين والصليبيون ص 214.
(3) النوادر السلطانية ص 81، 82.
(4) صلاح الدين والصليبيون ص 214.
(5) كتاب الروضتين (95/2)، صلاح الدين والصليبيون ص 214.
(6) النوادر السلطانية ص 82، صلاح الدين والصليبيون ص 215.

27 رجب 12/583 أكتوبر [1] 1187م.

وذكر أبو شامة نقلاً عن العماد في البرق الشامي أن الصليبيين عقب توقيع اتفاقية التسليم، شرعوا في إخلاء البيوت، وبيع ما ادخروا من الأثاث والأقوات بأرخص الأثمان، وكان خروجهم شبيهاً بالمجان لاسيما ما تعذر نقله وصعب حمله، وكانوا كا قال الله تعالى:{كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخَرِينَ} (الدخان، آية: 28).

ثالثاً: دخول صلاح الدين بيت المقدس:

تم الاتفاق بين صلاح الدين وباليان على تسليم المدينة وفقاً للشروط التي ذكرنا، ودخلها صلاح الدين: يوم الجمعة في 27 رجب 583هـ وذلك بعد أن أعطى بالباب الأوامر لحاميتها بإلقاء السلاح والاستسلام لجند المسلمين، وكان يوماً مشهوداً ورفعت الأعلام الإسلامية على أسوار المدينة المقدسة، وقد استمر حصار صلاح الدين للمدينة اثني عشر يوماً، وبسقوط القدس، انهارت أمام صلاح الدين معظم المدن والمواقع التي كانت لا تزال تحت سيطرة الصليبيين في معظم أنحاء بلاد الشام، ودخل صلاح الدين القدس في 27 رجب وكانت ليلة الإسراء، فأمر بأن يوضع على كل باب من أبواب المدينة أمير من أمراء الجيش لكي يتسلم الفدية من الصليبيين الخارجين من المدينة ويحتسبها وكان في المدينة على الضبط ستون ألف رجل ما بين فارس وراجل، سوى من يتبعهم من النساء والولدان [2]. ويستطرد ابن الأثير: ولا يعجب السامع من ذلك، فإن البلد كبير، واجتمع إليه من تلك النواحي من عسقلان وغيرها، والداروم ورملة وغزة، وغيرها من القرى، بحيث امتلأت الطرق والكنائس، وكان الإنسان لا يقدر أن يمشى [3].

وأما صلاح الدين فإنه بعد أن استقر له الحكم في المدينة المقدسة، أمر بإعادتها إلى ما كانت عليه قبل احتلالها من الصليبيين، وكان هؤلاء قد أقدموا على تغيير الكثير من المعالم الإسلامية للمدينة، فزرعوا صليباً كبيراً مذهباً على رأس قبة الصخرة، وأمر صلاح الدين بكشفها، وكان فرسان الداوية قد بنوا مباني لهم غرب المسجد الأقصى لكي يسكنوها، وأنشأوا فيها " هُري ومستراح وغير ذلك " وأدخلوا قسماً من هذا المسجد في أبنيتهم، فأمر صلاح الدين بإعادة الأبنية إلى حالها القديم، كما أمر بتطهير المسجد

(1) المصدر نفسه.
(2) حروب القدس في التاريخ الإسلامي ص 106.
(3) المصدر نفسه ص 106.

والصخرة من الأقذار والأنجاس، ثم عين إماماً للمسجد الأقصى وأقام فيه منبراً، ومحا ما كان فيه وفي الأبنية المجاورة من صور كان الصليبيون قد وضعوها أو رسموها وأعاد المسيحيين الوطنيين من أهل القدس إلى مساكنهم كما سمح لهم بشراء ما أراد الفرنج بيعه من ممتلكات ومتاع وأموال [1].

1 - لم يعرف التاريخ فاتحا أرحم من المسلمين:

ووفي صلاح الدين بوعده فمسح لمن دفع القطيعة بالخروج وكان قد رتب على كل باب أميراً مقدماً كبيراً يحصر الخارجين، فمن دفع الفدية فقد خرج [2]. وبالرغم من تلك القطيعة الزهيدة التي فرضها صلاح الدين مقابل خروجهم من بيت المقدس، وتأمين وصولهم إلى مأمنهم، فإن كثرة كثيرة منهم، لم يستطع دفعها فداء لنفسه، وأصبح بعد مضي أربعين يوماً أسيراً في أيدي المسلمين ولم يسهم أحد من أغنياء الصليبيين من فداء فقرائهم، فقد خرج البطريرك هرقل من بيت المقدس بخزائنه الضخمة دون النظر إلى غيره [3]، ويبدو أن ذلك كان سبب انعدام الروابط الأسرية وغيرها بين الصليبيين في ذلك الوقت، فالأسرى كانوا خليطاً من أجناس وشعوب أوروبية متباينة، وأجناد الغرباء المأجورين الذين رغبوا في السفر إلى الشرق تخلصاً من رق الأرض السائد وقتذاك في المجتمع الأوروبي [4].

والخلاصة أن ذلك الموقف المخزي من كبار الصليبيين، وتلك الشهامة وذلك التسامح من صلاح الدين قد أجبر الكاتب الإنجليزي لين بول على إبداء إعجابه بصلاح الدين حيث قال بعد أن تهجم على البطريرك " إنها كانت فرصة للملك المسلم أن يعلم المسيحيين معنى التسامح[5]، وقد برهن صلاح الدين وغيره من أمراء المسلمين على تلك الشهامة والتسامح عندما أصبح آلآف المدنيين الصليبيين الذين عجزوا عن دفع الفدية المقررة أسرى في يد صلاح الدين، فطلب الملك العادل إلى أخيه السلطان صلاح الدين يطلب منه أن يهب له ألفاً من أولئك الصليبيين الفقراء ليطلق سراحهم لوجه الله، وأجابه صلاح الدين إلى ذلك وحرك ذلك العمل الإنساني الذي قام به الملك العادل مشاعر البطريرك باليان فتقدما إلى صلاح الدين وطلبا منه مثل ذلك، فأعطاهما صلاح

(1) حروب القدس في التاريخ الإسلامي والعربي ص 108.
(2) كتاب الروضتين (95/2).
(3) صلاح الدين والصليبيون ص 216.
(4) جيش مصر ص 69.
(5) صلاح الدين والصليبيون ص 216.

الدين ما طلباه وأطلق سراحهم ثم تقدم صلاح الدين وأمر حراسه بالمناداة في شوارع بيت المقدس، بأنه سوف يطلق سراح من لم يستطع دفع الفدية من الصليبيين لكبر سنه وأن على على هذه الطائفة أن تتقدم من الباب الخلفي للمدينة يسمح لها بالخروج من طلوع الشمس إلى الليل. وما أن صدر ذلك الإعلان حتى توافد الصليبيون على ذلك الباب بأعداد لا تحصى [1]، وطلب أمير البيرة إطلاق سراح زهاء خمسمائة أرمني، ذكر لصلاح الدين إنهم من بلده، وإن قدومهم إلى بيت المقدس كان من أجل العبادة هناك، كما طلب أيضاً الأمير مظفر الدين علي كوجك إطلاق سراح زهاء ألف أرمني ادعى أنهم من الرها، فأجابهم صلاح الدين إلى ذلك وأطلق سراحهم [2].

ولم يقتصر ذلك التسامح من المسلمين على ما قام به صلاح الدين وأخوه الملك العادل وكبار الأمراء المسلمين، بل تعدى ذلك إلى عامة المسلمين، والواقع أن صلاح الدين قد أبدى من التسامح وكرم الأخلاق تجاه أسرى الصليبيين في بيت المقدس الشيء الكثير. وبلغ من كرم وشهامة صلاح الدين بما قام به تجاه زوجات وبنات الفرسان الصليبيين، الذين قتلوا وأسروا أثناء معاركهم مع صلاح الدين، فقد تجمعن أمام صلاح الدين يبكين، فسأل عن حالهن وما يطلبن، فقيل له إنهن يطلبن الرحمة، فعطف عليهن صلاح الدين وسمح لمن كان زوجها على قيد الحياة بأن تتعرف عليه وأطلق سراحه وسمح لهم بالذهاب حيث يريدون، أما النساء والبنات اللاتي مات أزواجهن وآبائهن فقد أمر صلاح الدين بأن يصرف لهن من خزانته الخاصة ما يناسب عيشتهن ومركزهن وأعطاهن حتى ابتهلت ألسنتهن بالدعاء له[3].

أ - ملكة رومية متعبدة:

كانت بالقُدس ملكة رومية متعبدة مترهِّبة، في عبادة الصليب متصلبّة، وعلى مُصابها مُتَلَهِّية وفي التمسك بملتها متصعِّبة متعصِّبة، أنفاسها متصاعدة للحزن، وعبراتها متحدِّرة تَحدُّر القطران من المزن، ولها حال ومال ومتاع، وأشياء وأشياع، وأتباع، فعاذت بالسلطان، فأعاذها، ومنَّ عليها وعلى كل من معها بالإفراج، وأذن في إخراج كلّ مالها في الأكياس والإخراج، وأبقى عليها مصوغات صُلبانها الذهبية المجوهرة ونفائسها، وكرائم خزائنها، فخرجت بجميع مالها وحالها، ونسائها، ورجالها وأسفاطها وأعدالها، والصناديق بأقفالها، وتبعها من لم يكن من أتباعها، فراحت فرحى،

(1) صلاح الدين والصليبيون ص 217.
(2) مفرج الكروب (215/2).
(3) صلاح الدين والصليبيون ص 218.

وإن كانت من شجنها قَرْحى[1].

ب - زوجة ملك مأسور:

خرجت زوجة الملك المأسور كي، وهي ابنة أماري وكانت مقيمة في جوار القُدْس مع مالها من الخَوَل والخَدَم والجواري، فاستأذنت في الإلمام بزوجها، وكان بقيده مقيماً في بُرْج نابُلُس، موكلاً به ليوم وَعْدِ تسريحه، فأذن لها، فخلصت هي ومن تبعها، وأقامت عند زوجها [2].

ج - الإبرنساسة أم هنفري:

خرجت الإبرنساسة أم هنفري وهي ابنة فليب وزوجة الإبرنس الذي سُفك دمه يوم حطين وهي صاحبة الكَرَك والشَّوبك وهي بنَّوابها محوطة وبرأيها منوطة، فجاءت سائلة في ولدها العاني، فوعِدت أنها إن سمحت بحِصنها سمح لها بابنها، ثم أعفيت وأُطلقت وعُصمت واستحضر ابنها هنفري بن هنفري من دمشق إليها، وأقَر برويته عينيها، وسار معها من الأمراء والأمناء من تسلَّم منهم تلك المعاقل، فمضت إلى حصونها لتسلّمها، فمانعها أهلها ودافعوها، وردُّوها ذليلة خائبة، فسكنت صور، واستودعت السلطان ابنها المأسور، ووعدها بإطلاقه إذا تسلمَّ تلك الحصون [3].

ح - احترام صلاح الدين مشاعر المسيحيين:

احترم صلاح الدين مشاعر المسيحيين، فعندما ما أشار بعض المسلمين عليه عقب دخوله بيت المقدس بهدم كنيسة القيامة، وإزالة آثارها وقالوا: إذا هدمت بنايتها، وألحقت بأسافلها أعاليها ونبشت المقبرة وعفيت، وأخمدت نيرانها وأطفيت ومحيت رسومها ونفيت، انقطعت عنها إمداد الزوار، وانحسمت عن قصدها مواد أطماع أهل النار، ومهما استمرت العمارة، استمرت الزيارة. بينما أشار عليه البعض بأنه لما فتح أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه القدس في صدر الإسلام أقرهم على هذا المكان ولم يأمرهم بهدم البنيان [4]، فأعرض صلاح الدين بتسامحه عن هدمها [5].

س - بقاء بعض النصارى بالقدس:

---

(1) كتاب الروضتين (343/3)، بيت المقدس أمام أحداث التاريخ ص 343.
(2) المصدر نفسه (343/3).
(3) المصدر نفسه (344/3).
(4) صلاح الدين والصليبيون ص 218.
(5) مفرج الكروب (231/2)، صلاح الدين والصليبيون ص 218.

وتضرع بعض النصارى إلى صلاح الدين ليسمح لهم بالبقاء داخل بيت المقدس بعد أدائهم الفدية المقررة عليهم، وتعهدوا له بألا يزعجوا أحداً، وأن يقوموا بالخدمة بالمدينة، فوافق صلاح الدين على ذلك واشترط عليهم شروطاً قابلوها بالالتزام والقبول، وأعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، وعوملوا معاملة أهل الذمة، فأصبح لهم ما للمسلمين وعليهم من الحقوق والواجبات [1]. وهكذا أيدى المسلمون الرحمة نحو المدينة التي سقطت في أيديهم وإذا استعاد الإنسان ذكرى دخول الصليبيين بيت المقدس سنة 1099م عندما نشر جود فري وتانكرد الموت في الشوارع وعندما أغرق المدافعون المسلمون وأحرقوا وألقوا في بحار من الدماء، حيث كان الصليبيون يخوضون حتى كعوبهم في دماء القتلى، فضلاً عما قاموا به من نهب وسلب وسبي [2] فإنه يدرك الفرق الشاسع بين تسامح صلاح الدين ووحشية القادة الصليبيين، إذ يتضح مدى تمسك صلاح الدين بمبدأ التسامح وأحكام الشريعة الإسلامية السمحاء وبعده كل البعد عن تحكيم عواطفه وأهوائه تجاه الصليبيين الذين لم يمض على ارتكابهم تلك الجريمة الشنعاء قرن من الزمان [3] يقول جيمس رستون: وهكذا سلك جنود صلاح الدين سلوكاً مثالياً في احتلالهم للقدس سنة 1187م وقد نظر صلاح الدين لنفسه وسمعته بعد الانتقام لما فعله الصليبيون في الحرب الأولى سنة 1099م وبسبب حمايته لكنيسة القيامة وأماكن مسيحية أخرى كثيرة، سيتذكر الجميع تسامحه تجاه أهل الأديان الأخرى، وتجاه الأماكن المقَّدسة للدين المسيحي ويبدو أن أفعاله اعتُبرت عَلَما ونموذجاً على كيفية سلوك المسلك الصالح، فبسبب عفوه، ووجوه الخير، المتعددة في طبيعته، وسلوكه تجاه أعدائه، سيظل مشهوراً إلى الأبد باللطف والتسامح والحكمة [4].

ش - رأي ستيفن رنسيمان:

والفضل ما شهدت به الأعداء، قال ستيفن رنسيمان وهو من المؤرخين الفرنجة: الواقع أن المسلمين الظافرين اشتهروا بالاستقامة والإنسانية، فبينما كان الفرنج، ومنذ ثمان وثمانين سنة، يخوضون في دماء ضحاياهم، لم تتعرض الآن دار من الدور للنهب، ولم يحّل بأحد من الأشخاص مكروه، إذ صار رجال الشرطة، بناء على أوامر صلاح الدين، يطوفون بالشوارع والأبواب يمنعون كل اعتداء يقع على المسيحيين، ومن

(1) الفتح القسي في الفتح القدسي ص 136، صلاح الدين ص 219.
(2) أعمال الفرنجة، ترجمة حسن حبشي ص 118 - 120.
(3) صلاح الدين والصليبيون ص 219.
(4) مقاتلون في سبيل الله ص 137.

المناظر التي تدعو للحزن والأسى، ما حدث من التفاف العادل إلى أخيه صلاح الدين يطلب منه إطلاق سراح ألف أسير، على سبيل المكافأة على خدماته له، فوهبهم له صلاح الدين، فأطلق العادل سراحهم على الفور، وإذ ابتهج البطريرك هرقل لأن يلتمس هذه الوسيلة الرخيصة لفعل الخير، لم يسعه إلا أن يطلب من صلاح الدين أن يهبه بعض الأرقاء ليعتقهم، فبذل له صلاح الدين سبعمائة أسير، كما جعل صلاح الدين لباليان خمسمائة أسير، ثم أعلن صلاح الدين أنه سوف يطلق سراح كل شيخ وكل امرأة عجوز، ولما أقبل نساء الفرنج اللاتي افتدين أنفسهن، وقد امتلأت عيونهن بالدموع، فسألن صلاح الدين أين يكون مصيرهن بعد أن لقي أزواجهن أو آباؤهن مصرعهم أو وقعوا في الأسر، أجاب بأن وعد بإطلاق سراح كل من في الأسر من أزواجهن، وبذل للأرامل واليتامى من خزانته العطايا كلٌّ بحسب حالته والواقع أن رحمته وعطفه كانا على نقيض أفعال الغزاة المسيحيين في الحملة الصليبية الأولى [1].

4- وقال غروسيه ما نصه بالحرف أيضاً:

بعكس الصليبيين نفذ صلاح الدين وعوده بشرف وبشعور إنساني، وبروح فروسية، مما أثار إعجاب المؤرخين اللاتين الذين سردوا أحداث تلك الفترة.... ويستطرد "غروسيه": طلب بعض المتعصبين من صلاح الدين هدم معابد المسيحيين وتدمير كنيسة القيامة بهدف إلغاء حج المسيحيين "المؤمنين بالثالوث المقدس" فصدهم عن ذلك بكلمة منه، قال: لماذا الهدم والتدمير، طالما أن هدف عبادتهم هو مكان الصليب والقبر المقدس، وليس البناء الخارجي؟ وحتى لو سويت الأبنية بالأرض، فإن مختلف الطوائف المسيحية لن تتخلى عن السعي للوصول إلى هذا المكان لنفعل، إذن، كما فعل الخليفة عمر الذي احتفظ بهذه الأبنية عندما فتح القدس في السنوات الأولى للإسلام. ويعلق غروسيه على ذلك بالقول: إن كل ما يتحلى به هذا السلطان العظيم من حرية الرأي والمعتقد يبرز في هذه العبارة الجميلة [2] وصدق الشاعر الحيص بيص شهاب الدين أبو الفوارس المتوفى 574هـ عندما قال:

ملكنا فكان العفو منا سجية ::: فلّما ملكتم سال بالدّم أبطح
وحَلَّلتُمُ قتل الأسارى وطالما ::: عدونا على الأسرى تَمُنُّ ونصفح

(1) حروب القدس في التاريخ الإسلامي والعربي ص 108.

(2) حروب القدس في التاريخ ص 108.

وَحسْـــبُكُمُ هـــذا التفـــاون بيننـــا ::: وكل وعـــاءٍ بالـــذي فيـــه ينضـــح [1]

لقد بهر صلاح الدين بأخلاقه الإسلامية ملوك الغرب وقوادهم، حيث كانوا يقودون جحافل جيوشهم في الشام حتى أن الفرنسيين، كانوا يقولون: أن دماءه دماء فرنسية، والألمان والإنكليز، والإيطاليون كلهم كانوا ينسجون قصصاً رائعة عن أخلاق صلاح الدين ويتحدثون عنها في قراهم ومدنهم ومسرحياتهم [2].

لقد كان صلاح الدين فعلا رجلاً إسلامياً بكل معنى الكلمة مقتديا بالرسول محمد ﷺ في عفوه وحلمه وسماحته. ولقد قال عنه أحد المؤرخين الأوروبيين: سيظل في الذاكرة أن الزمان الدموي والقاسي مثل ذاك الزمان، لم يتمكن من إفساد إنسان ذي سلطة عظيمة، إنه صلاح الدين [3] وأكبر دليل على تقدير الإفرنج لهذه البطولة النادرة والسماحة السمحة اهتمام إمبراطور ألمانيا بزيارة قبرة صلاح الدين عندما زار بلاد الشام سنة 1315هـ /1899م وكانت معه الإمبراطورة وقد خطب خطبة أشاد فيها صلاح الدين، وأرسلت الإمبراطورة إكليلاً من الزهر ليوضع على ضريح البطل العظيم. ولم ينس أمير الشعراء - أحمد شوقي - أن يسجل هذه الذكرى فقال:

عظـيمُ النـاس مـن يبكـي العظامـا ::: ويـنـدبهم ولـو كـانوا عظامـا
فهـل مـن مبلـغ غليـوم عـني ::: مقـالا مُرضـياً ذاك المقامـا
رعـاك الله مـن ملـك همـام ::: تعهَّـد في الثـرى ملكـا همامـا
أرى النسـيان أظمـأه فلمَّـا ::: وقفـت بقـبره كنـت الغمامـا
أتـدري أيَّ سـلطان تحيِّـي ::: وأيَّ مُمَلّـكٍ تهـدي السـلاما
دعـوت أجـلَّ أهـل الأرض حربـا ::: وأشـرفهم إذا سـكنوا سـلاما [4]

رابعاً : أول صلاة جمعة في بيت المقدس :

لما نزه البيت المقدس ممّا كان فيه من الصلبانا والنواقيس، والرهبان والخنازير والقساقيس، ودخله أهل الإيمان، ونودي بالأذان وهرب الشيطان وقرئَ القرآن، وطهر المكان فكان إقامة أوَّل جمعةٍ في يوم الرابع من شعبان، بعِدَ يوم الفتح بثَمانٍ فنصب المنبرٌ إلى جانب المحراب المطهَّر وبسطت البُسُط الرفيعة في تلك العراض الوسيعة وعلقت القناديل وتُلِيَ التنزيل عِوضاً عمَّا كان يقرأ من التحريف في الإنجيل، وجاء

(1) شذرات الذهب (410/6).
(2) الوجيز في الشام أرض الأنبياء ومهد الأصفياء ص 61.
(3) الوجيز في الشام أرض الأنبياء ومهد الأصفياء ص 61.
(4) صلاح الدين الأيوبي، أحمد عبد الجواد ص 51.

الحقُّ وبطلت تلك الأباطيل، وصُفَّت السَّجادات وكثُرت السّجدات، وتنوعت العبادات وأُديمت الدعوات ونزلت البركات وانجلت الكُرُبات، وأقيمت الصلوات، ونطق الأذان، وخرس الناقوس، وحضر المؤذنون وغاب القسوس وطابت الأنفاس واطمأنت النفوس، وأقبلت السُّعود وأدبرت النحوس، وحضر العّباد والزهّاد... وعُبد الواحد وكثر الراكع والساجد والقائم القاعد، وامتلأ الجامع وسالت لرقّة القلوب المدامع... هذا يوم كريم وفضل عظيم وموسم وسيم وهذا يوم تجاب فيه الدعوات وتُصبُّ البركات وتسيل العبرات وتقال العثرات، فأذن المؤذنون للصلاة وقت الزوال، وكادت القلوب تطير من الفرح بتلك الحال ولم يكن السلطان إلى تلك الساعة عَّين خطيباً، وقد تهَّيأ لها خلق من العلماء خوفاً أن يُدعى إليها أحدُهم فلا يكون نجيبا، فبرز للخطباء المرسوم السلطاني الصَّلاحِيُّ وهو في قبة الصخرة الغَّراء، أن يكون القاضي محيى الدين بن الزكي اليوم خطيباً فلبس الخلعة السوداء وصعِد المنبر وقد كساه الله البهاء وأكرمه بكلمة التقوى وأعطاه السكينة والوَقار والسناءَ فخطب بالناس خطبة عظيمة سنية فصيحة بليغة، ذكر فيها شرف البيت المقدس، وما ورد فيه من الفضائل والترغيبات وما فيه من الدلائل والإمارات، وما منّ الله به على الحاضرين من هذه النعمة التي تعِدلُ الكثير من القُربات وقد أوردها الشيخ شهاب الدين أبو شامة في "الروضتين" بطُولها، فكان أوّل ما قالَ حين تكلمَّ:**{فَقُطِعَ دَابِرُ القَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَـالَمِينَ}** (الأنعام: 45) ثم أورد تحميدات القرآن كلهَّا، ثم قال:

1 - قدرة الله على تحقيق النصر:

الحمد لله وُمذِلّ الشرك بقهره، ومصّرف الأمور بأمره ومديم النعَم بشكره ومستدرج الكافرين بمكره، الذي قَّدره الأيام دولاً بعدله وجعل العاقبة للمتقين بفضله وأفاء على عباده من ظله، وأظهر دينه على الدين كله، القاهر فوق عباده فلا يمانع، والظاهر على خليقته فلا ينازع، والآمر بما يشاء فلا يراجع، والحاكم بما يريد فلا يدافع، أحمده على إظفاره وإظهاره وإعزازه لأوليائه ونصره لأنصاره وتطهيره بيته المقدس من أدناس الشرك وأوضاره حمد من استشعر الحمد باطن سّره وظاهر جهاره.

2 - الثناء على الرسول الكريم وعلى صحابته:

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحدُ، شهادة من طهّر بالتوحيد قلبه وأرضى به ربه وأشهد أن محمداً عبده ورسوله رافع الشّكّ وداحض الشرك وراحض الإفك، الذي أسرىَ به من المسجد الحرام إلى هذا المسجد الأقصى وعُرج به منه إلى السماوات العُلا إلى سدرة المنتهى**{عِنـــدَهَا**

جَنَّةُ الْمَأْوَى * إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى * مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى} (النجم: 15 - 17) ﷺ وعلى خليفته الصِّدِّيق السابق إلى الإيمان، وعلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أوّل من رفع عن هذا البيت شعار الصُّلبان، وعلى أمير المؤمنين عثمان بن عفان ذي النورين جامع القرآن، وعلى أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب مزلزل الشرك، ومكسر الأوثان وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان [1].

3 - رضي الله عن المجاهدين:

أيها الناس، أبشروا برضوان الله الذي هو الغاية القصوى، والدَّرجة العُليا لما يسره الله على أيديكم من استرداد هذه الضَّالة من الأمة الضَّالة وردّها إلى مقرّها من الإسلام بعد ابتذالها في أيدي المشركين قريباً من مئة عام، وتطهير هذا البيت الذي أذّنَ الله أن يُرفع وأن يذكر فيه اسمه وإماطة الشّرك عن طرقه بعد أن امتد عليها رُواقه، واستقَّر فيها رسمه، ورَفع قواعده بالتوحيد فإنه بُني عليه، وبالتقوى فإنه أسّسَ على التقوى من خلفه ومن بين يديه.

4 - مآثر المسجد الأقصى:

فهو موطن أبيكم إبراهيم، ومعراج نبيكم محمد عليه السَّلام، وقبلتكم التي كنتم تُصلوُّن إليها من ابتداء الإسلام، وهو مقرُّ الأنبياء، ومقصد الأولياء ومقُّر الرسل، ومهبط الوحي، ومنزل تَنَزُّل الأمر والنَّهي، وهو في أرض المحشر وصعيد المنشر، وهو في الأرض المقدسة التي ذكرها الله في كتابه المبين، وهو المسجد الذي صلى فيه رسول الله ﷺ بالملائكة المقَّربين، وهو البلد الذي بعث الله إليه عبده ورسوله، وكلمته التي ألقاها إلى مريم وروحه، عيسى الذي شّرفه الله برسالته، وكّرمه بنبوَّته، ولم يزحزح عن رُتبة عبوديَّته، فقال تعالى:**{لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِّلَّهِ}** (النساء، آية: 72) وقال:**{لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ}** (المائدة). وهو أولى القبلتين وثاني المسجدين، وثالث الحَرمَين، ولا تُشَدُّ الرّحال بعد المسجدين إلا إليه، ولا تُعقد الخناصر بعد المواطنين إلا عليه.

5 - تهنئة صلاح الدين وجنده المسلمين بالنصر:

لولا أنكم ممن اختاره الله من عباده، واصطفاه من سُكان بلاده لما خصَّكم بهذه الفضيلة التي لا يجاريكم فيها مُجار ولا يباريكم في شَرفها مُبَارٍ فطوبى لكم من جيش ظهرت على أيديكم المعجزات النبوية والوقعات البدرية، والعزمات الصِدّيقية، والفتوح

(1) البداية والنهاية (590/16).

العُمريّة، والجيوش العثمانية والفتكات العَلَوية، جِدَّدتُم للإسلام أيام القادسية، والوقعات اليرموكية، والمنازلات الخيبرية، والهجمات الخالدية، فجزاكم الله عن نبيه محمد ﷺ أفضل الجزاء، وشكر لكم ما بذلتموه من مُهَجكم في مقارعة الأعداء، وتقبل منكم ما تقربتم إليه من مُهْرَاق الدماء وأثابكم الجنة فهي دار السعداء.

6 - شكر الله على النصر:

فاقدروا - رحمكم الله - هذه النعمة حق قدرها، وقوموا لله تعالى بواجب شكرها فله النِّعمة عليكم بتخصيصكم بهذه النِّعمة، وترشيحكم لهذه الخدمة، فهذا هو الفتح الذي فُتِحَت له أبواب السَّماء، وتبلْجت بأنِواره وجوه الظَّلماء وابتهج به الملائكة المقرَّبون، وقَرَّبه عينا الأنبياء والمرسلون، فماذا عليكم من النِّعمة بأن جعلكم الجيش الذي يفتح عليه البيت المقَّدس في آخر الزمان، والجُند الذي تقوم بسيوفهم بعد فترة من النبوة أعلام الإيمان، فيوشك أن تكون التهاني به بين أهل الخضراء، أكثر من التهاني به بين أهل الغبراء.

7 - فضائل الأقصى والقدس:

أليس هو البيت الذي ذكره الله في كتابه ونصَّ عليه في خطابه، فقال تعالى:**{سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ المَسْجِدِ الحَرَامِ إِلَى المَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ}** (الإسراء، آيَة: 1) - أليس هو البيت الذي عظمته الملوك وأثنت عليه الرُّسلُ وتليت فيه الكتب الأربعة المنزلة من إلهكم عزّ وجل؟ أليس هو البيت الذي أمسك الله عز وجل الشمس على يوشع لأجله أن تغرب، وباعد بين خطواتها لِيتيسَّرَ فتحه ويَقْرب؟ أليس هو البيت الذي أمر الله موسى أن يأمر قومه باستنقاذه فلم يجبه إلا رجلان، وغضب عليهم لأجله، فألقاهم في التيه عقوبة للعصيان؟

8 - شكر الله وحمده:

فاحمدوا الله الذي أمضى عزائمكم لما نكلت عنه بنو إسرائيل، وقد فضلهم على العالمين ووفَّقكم لما خُذِل فيه من كان قبلكم من الأمم الماضين وجمع لأجله كلمتكم وكانت شَتّى، وأغناكم بما أمضته "كان" و"قد" عن "سوف" و"حتى".

9 - الملائكة يشكرون الله للمجاهدين:

فليهنكم أن الله قد ذكركم به فيمن عنده وجعلكم جنده، وشكركم الملائكة المنزَّلون على ما أهديتم إلى هذا البيت من طِيْبِ التوحيد، ونشر التقديس والتحميد، وما أمطتُم عن طُرقُهم فيه من أذى الشّرك والتثليث والاعتقاد الفاجر الخبيث، فالآن يستغفر لكم أملاك

السمَّوات، وتصليً عليكم الصلوات المباركات.

10 - نهى عن الغرور وارتكاب المعاصي:

فاحفظوا - رحمكم الله - هذه الموهبة فيكم، واحرسوا هذه النعمة عندكم، بتقوى الله التي من تمسَّك بها سَلِمَ ومن اعتصم بعُزوتها نجا وعُصِم، واحذروا من اتباع الهوى، وموافقة الرّدى، ورجوع القهقرى والنكول عن العدى، وخذوا في انتهاز الفرصة، وإزالة ما بقي من الغُصَّة وجاهدوا في الله حقَّ جهاده وبيعوا عبادة الله أنفسكم في رضاه إذ جعلكم من عباده.

11 - وما النصر إلا من عند الله:

وإياكم أن يستزلكّم الشيطان، وأن يتداخلكم الطغيان، فيخيّل لكم هذا النصر بسيوفكم الحداد، وبخيولكم الجياد، وبجلادكم في مواطن الجلاد لا والله:{**مَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**} (الأنفال، آية: 10).

12 - البعد عن المعاصي:

واحذروا عباد الله - بعد أن شَرَّفكم بهذا الفتح الجليل، والمنح الجزيل، وخصَّكم بهذا الفتح المبين، وأعلق أيديكم بحبله المتين - أن تقترفوا كبيراً من مناهيه، وأن تأتوا عظيماً من معاصيه، فتكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً والذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين.

13 - دعوة للاستمرار في الجهاد:

والجهاد فهو من أفضل عباداتكم وأشرف عاداتكم، انصروا الله ينصركم، واذكروا الله يذكركم، اشكروا الله يزدكم ويشكركم جُدُّوا في حسم الدّاء، وقطع شأفة الأعداء، وتطهير بقيّة الأرض التي أغضبت الله ورسوله، واقطعوا فروع الكفر واجتثُّوا أُصوله، فقد نادت الأيام بالثّارات الإسلامية والملة المحمدية، الله أكبر فتح الله ونصر، غلب الله وقهر أذل الله من كفر.

14 - دعوة لتحرير ما تبقى من الأرض المقدسة:

واعلموا - رحمكم الله - أن هذه فُرصة فانتهزوها وفريسة فناجزوها ومهمّة فأخرجوا لها هِمَمكم وَبَرِّزُوها وسيِّروا إليها سرايا عزماتكم وجهزّوهَا فالأمور بأواخرها، والمكاسب بذخائرها، فقد أظفركم الله بهذا العدوّ المخذول، وهم مثلكم أو يزيدون، فكيف وقد أضحى في قُبالة الواحد منكم عشرون وقد قال الله تعالى:{**إِن يَكُن**

مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ} (الأنفال، آية: 65). أعاننا الله وإياكم على اتّباع أوامره والإزجار بزواجره وأيدنا معشر المسلمين بنصر من عنده**{إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّنْ بَعْدِهِ}** (آل عمران، آية: 160).

15 - أدعيه للسلطان صلاح الدين وللمسلمين في دينهم ودنياهم:

وتمام الخطبة الثانية قريب مما جرت به العادة، وقال بعد الدُّعاء للخليفة: اللهم، وأدم سُلطان عبدك، الخاضع لهيبتك، الشاكر لنعمتك، المعترف بموهبتك سيفك القاطع، وشهابك اللامع، والمحامي عن دينك المدافع، والذابّ عن حرمك الممانع، السَّيد الأجل، الملك الناصر، جامع كلمة الإيمان، وقامع عبدة الصلبان صلاح الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين مطهّر البيت المقّدس أبي المظفر يوسف بن أيوب، محي دولة أمير المؤمنين.

- اللهم عُمَّ بدولته البسيطة واجعل ملائكتك براياته محيطة، وأحسن عن الدِّين الحنيفيّ جزاءه وأشكر عن المِلّة المحمدية عزمه ومضاءه.

- اللهم أبق للإسلام مُهجته، ووقّ للإيمان حَوْزته، وانشر في المشارق والمغارب دعوته.

- اللهم كما فتحت على يده البيت المقدس بعد أن ظُنَّت الظنون، وابتلى المؤمنون، فافتح على يده أداني الأرض وأقاصيها، وملكه صياصي الكفرة ونواصيها، فلا تلقاه منهم كتيبة إلا مَزَّقها، ولا جماعة إلا فرقها، ولا طائفة بعد طائفة إلا ألحقها بمن سبقها.

- اللهم أشكر عن محمد ﷺ، وأنفذ في المشارق والمغارب أمره ونهيه، اللهم وأصلح به أوساط البلاد وأطرافها وأرجاء الممالك وأكنافها.

- اللهّم ذلّل به معاطس الكفار وأرغم به أنوف الفُجَّار، وانشر ذوائب ملكه على الأمصار وثبت سرايا جنوده في سُبل الأقطار.

- اللهم ثبت الملك فيه وفي عقبه إلى يوم الدين، واحفظه في بنيه وبني أبيه الملوك الميامين، واشدد عضده ببقائهم وأقض بإعزاز أوليائه وأوليائهم.

- اللهم كما أجريت على يده في الإسلام هذه الحسنة التي تبقى على الأيام وتتخلد على مَرّ الشهور والأعوام، فارزقه الملك الأبديَّ الذي لا ينفد في دار المتقين وأجب دُعاءه في قوله:**{رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ}** (النمل، آية: 19) ثم دعا، بما

جرت به العادة [1] وبعد الصلاة جلس الشيخ زين الدين أبو الحسن عليُّ بنُ نجا المصريُّ على كرسي الوعظ بإذن السلطان، فوعظ الناس وكان وقتاً مشهوداً وحالاً محموداً فلله الحمد والمنَّةُ واستمر القاضي محي الدين بن الزَّكي يخطب بالناس في أيام الجمع أربع جمعات، ثم قرَّر السلطان للقدس خطيباً مستقراً وأرسل إلى حلب فاستحضر المنبر الذي كان الملك العادل نور الدين محمود قد استعمله لبيت المقدس، وقد كان يُؤمِّل أن يكون فتحه على يديه، فما كان إلا يدى بعض أتباعه بعد وفاته [2].

خامساً: منبر نور الدين في بيت المقدس:

وكان للملك العادل نور الدين محمود زنكي رحمه الله في عهده عَرفَ بنور فراسته فتح البيت المقّدس من بعده، فأمر في حلب باتخاذ منبر للقدس، تَعِبَ النّجارون والصُّناع والمهندسون فيه سنين وأبدعوا في تركيبه الإحكام والتَّزيين، وأنفق في إبداع محاسنه وإبداء مزاينه ألوفاً، وكان لترديد النَّظر فيه على الأيام ألوفا، وبقي ذلك المنبر بجامع حلب منصوباً، سيفا في صِوان الحِفظ مقروبا، حتى أمر السُّلطان في هذا الوقت بالوفاء بالنَّذر النُّوري، ونَقْل المنبر إلى موضعه القُدْسي، فَعُرفت بذلك كرامات نور الدين التي أشرق نورها بعده سنين، وكان من المحسنين الذين قال الله فيهم**{وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}**[3] (آل عمران، آية: 134) وفي رواية للعماد الأصفاني: ولم يزل لنور الدين في قَلَبه من الدين نور، وأثر تقواه للمتقين مأثور، أزهد العبّاد وأعبد الزُّهاد، ومن الأولياء الأبرار والأتقياء الأخيار، وقد نظر بنور الفراسة أن الفتح قريب وأن الله لدعائه ولو بعد وفاته مجيب، ويزيده قوة عزمه جِداً وتمُّده بحياة الربانية مّداً، قد طهَّره الله من العَيْب، وأطلعه على سِرِّ الغيب [4]، ونزَّهه من الريب لنقاء الجيب وشملت الإسلام بعده بركته وخُتمت بافتتاح مُلك صلاح الدين مملكته، وهو الذي رَبَّاه ولبَّاه وأحبه وحباه، وهو الذي سنَّ الفتح، وسنَّى النُّجح واتفق أن جامع حلب في الأيام النورية احترق، فاحتيج إلى منبر يُنصب فَنُصِب ذلك المنبر، وحسن المنظر، وتولى حينئذ النجار عمل المحراب على الرَّقم، وشابه المحراب المنبر في الرَّسم، ومن رأى حلب الآن شاهد منه على مثال المنبر القُدسي الإحسان ولما فتح السلطان القدس تقدَّم بحمله وصَحَّ به في محراب الأقصى اجتماعُ شَمِلِهِ، وظهر سِرُّ الكرامة في فوز الإسلام بالسلامة، وتناصرتِ الألسن

---

(1) كتاب الروضتين (391/3).
(2) البداية والنهاية (592/16).
(3) كتاب الروضتين (394/3).
(4) لم يطلع الله أحداً من خلقه على سر الغيب ولكن الإيمان بنصر الله عز وجل بعد تكامل أسبابه.

بالدُّعاء لنور الدين بالرحمة ولصلاح الدين بالنصُّرة والنِّعمة [1].

ويدل هذا العمل على مدى إخلاص صلاح الدين لنور الدين محمود زنكي الذي بذل الكثير لتحقيق الوحدة الإسلامية، تمهيداً لاقتلاع الوجود الصليبي في بلاد الشام، كما أن ذلك يدل على أن صلاح الدين عندما قضى على دولة الزنكيين التي سادها الضعف والوهن عقب وفاة نور الدين محمود وتولى ابنه الصغير الملك الصالح إسماعيل، لم يكن يقصد بذلك سوى مواصلة المسيرة والاستعداد للجهاد ضد الصليبيين لإزالتهم واسترداد بيت المقدس[2].

سادساً: إصلاحات صلاح الدين في بيت المقدس:

قام صلاح الدين بإزالة ما استحدثه الصليبيون من الأبنية والأسوار في بيت المقدس، فقد أقام فرسان الداوية غربي المسجد الأقصى أبنية للسكنى، وأدخلوا بعض الأقصى في أبنيتهم، وبنوا على وجه المحراب جداراً وتركوه مخزنا للغلة، وقيل اتخذوه مستراحاً قاصدين بذلك طعن الإسلام والمسلمين [3] كما بنوا على الصخرة في بيت المقدس كنيسة وستروها بالأبنية، وملؤوها بالصور، ونصبوا عليها مذبحاً، وعينوا بها مواضع الرهبان كما أقاموا على رأس قبة الصخرة صليباً كبيراً وغير ذلك حتى غيروا معالمها. وقام الطامعون منهم بقطع قطع منها وبيعها في أسواق القسطنطينية، وجزيرة صقلية بوزنها ذهباً [4]، فلما كان يوم الجمعة سبط شعبان 583هـ/9 أكتوبر 1187م وهي الجمعة التالية للجمعة التي دخل فيها المسلمون بيت المقدس، أمر صلاح الدين بإزالة ما استحدثه الصليبيون من الأبنية والأسوار وكشف الجدار الساتر للمحراب، كما أمر بإزالة ما استحدثوه على قبة الصخرة المقدسة من مبان وصور، ثم أمر الفقيه ضياء الدين الهكاري بأن يكون أميناً عليها وأدار عليها شبابيك من حديد [5]، أما بالنسبة للصليب الذهبي الذي أقامه الصليبيون على قبة الصخرة، فيذكر ابن واصل أن المسلمين ما أن دخلوا البلد حتى تسلق جماعة منهم إلى أعلى القبة واقتلعوا الصليب، الذي سقط وعند ذلك؛ صاح الناس كلهم صوتاً واحداً، من البلد ومن ظاهره، المسلمون والفرنج، أما

(1) كتاب الروضتين (393/3).
(2) صلاح الدين والصليبيون ص 223.
(3) كتاب الروضتين نقلاً عن صلاح الدين والصليبيون ص 222.
(4) مفرج الكروب (227/2 - 229)، صلاح الدين والصليبيون ص 222.
(5) مرآة الزمان نقلاً عن صلاح الدين والصليبيون ص 222.

المسلمون فكبروا فرحاً، وأما الفرنج فصاحوا توجعاً وتفجعاً [1].

ولما فرغ صلاح الدين من إزالة ما استحدثه الصليبيون داخل بيت المقدس بدأ بعمارة المسجد الأقصى، فبذل جهداً كبيراً في تحسينه وترصيفه وتدقيق نقوشه، فأحضر له من الرخام مالا يوجد مثله ومن الفص المذهب القسطنطيني وغير ذلك من المواد للتزيين مالا يمكن وصفه، وشرع في عمارته، وتزيينه وإزالة ما على جدرانه من الصور والتماثيل[2] وخص صلاح الدين المحراب باهتمام كبير، فعمل على ترخيمه وتزيينه [3]، وتقدم السلطان في المسجد الأقصى ببسط العراص وإخلائها لأهل الإخلاص، وتنظيفها من الأدناس، وكنس ما في أرجائها من الأرجاس [4]، وأحضر الملك المظفر تقي الدين عمر إلى قبة الصخرة أحمالاً من ماء الورد وتولى بيده كنس ساحتها وعراصها، ثم غسلها بالماء مراراً حتى تطهرت، ثم أفاض عليها ماء الورد، وطهر حيطانها وغسل جدرانها، ثم بخرها بمجامر الطيب وجاء الملك الأفضل نور الدين علي بن صلاح الدين؛ بكل نور جلي وكرم ملي، وبسط بها الضيعة، وفرش فيها البسط الرفيعة [5]. كما قام المسلمون بكنس عراص المسجد وتنظيفها ثم فرشها بالبسط عوض الحصر والبواري، وعلقت القناديل وصفت السجادات [6].

وبعد أن أنهى صلاح الدين تطهير بيت المقدس مما علق به من آثار الصليبيي، رتب في المسجد الأقصى وقبة الصخرة وغيرها من المساجد داخل بيت المقدس الخطباء والأئمة والمؤذنين والقومة، وأحضر إليها المصاحف والربعات؛ كما قام صلاح الدين بإنشاء المدارس والأربطة فجعل كنيسة مدرسة للفقهاء الشافعية، وعين دار البطريك رباطا للفقراء وأوقف على ذلك أوقافا جليلة [7] وكان لاسترجاع صلاح الدين لبيت المقدس من أيدي الصليبيين أهمية خاصة بالنسبة لصلاح الدين ومكانة بين أبطال المسلمين حتى أنه يمكن القول أنه إذا كان الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد طهر بيت المقدس من براثن الروم في السنة الخامسة عشر للهجرة، فإن صلاح الدين أعاد تلك الذكرى في القرن السادس الهجري بعد أن تعرضت لبيت المقدس لذلك

(1) المصدر نفسه ص 222.
(2) صلاح الدين والصليبيون ص 223.
(3) المصدر نفسه ص 223.
(4) كتاب الروضتين نقلاً عن صلاح الدين والصليبيون ص 224.
(5) مفرج الكروب (230/2)، صلاح الدين والصليبيون ص 224.
(6) صلاح الدين والصليبيون ص 224.
(7) مفرج الكروب (230/2)، صلاح الدين والصليبيون ص 224.

الاعتداء الصليبي الذي استمر ما يقارب المائة عام ووضع صلاح الدين بذلك العمل الجليل الأساس لمن بعده من سلاطين المسلمين للقضاء على بقايا الصليبيين في بلاد الشام [1].

سابعاً: إرسال البشائر والوفود إلى أنحاء العالم الإسلامي:

وصل صلاح الدين باسترداد بيت المقدس إلى قمة المجد السياسي والعسكري وأخذت أخبار ذلك الحدث تنتشر في أنحاء العالم الإسلامي، فقد سارع صلاح الدين بإرسال البشائر باسترداد بيت المقدس إلى الخليفة العباسي في بغداد وإلى مختلف الأمراء والحكام المسلمين، وذكر أبو شامة نقلاً عن العماد الأصفهاني الذي لم يحضر الفتح لمرض ألم به، أنه لما سمع وهو بدمشق نزول السلطان صلاح الدين على بيت المقدس شفي من مرضه، وتوجه إليه، فوصل عنده يوم السبت ثاني يوم الفتح، يقول العماد: وطلعت عليه صبحاً، فاستبشر بقدومي وخلع على البشير قبل رؤيتي وكان أصحابه يطالبونه بكتب البشائر ليغربوا بها ويشرقوا وهو يقول لهم لهذه القوس بار، ولهذه المأدبة قار، قال فكتبت في ذلك اليوم سبعين بشارة، كل كتاب بمعنى بديع وعبارة فمنها الكتاب إلى الديوان العزيز ببغداد افتتحته بهذه الآية:**{وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً}** (النور، آية: 55).

كما أرسل أيضاً إلى الإمبراطور البيزنطي إسحاق إنجليوس يبشره بذلك النصر العظيم[2]، واستقبل صلاح الدين رسل ووفود الملوك والأمراء المسلمين من سلاجقة الروم وخراسان والعراق، لتهنئته بما خصه الله به من نصر عظيم [3]، كما أن المسلمين عندما سمعوا باسترداد بيت المقدس، وفدوا للزيارة، من كل فج عميق وسلكوا إليه في كل طريق وأحرموا من البيت المقدس إلى البيت العتيق [4]. وجلس صلاح الدين بالمخيم ظاهر بيت المقدس للقاء الأكابر والأمراء والعلماء الذين أتوه من كل حدب وصوب لزيارة بيت المقدس، وتهنئته بما أفرده الله به من الفضيلة باسترداد بيت المقدس من الصليبيين [5].

---

(1) صلاح الدين والصليبيون ص 225.
(2) المصدر نفسه ص 220.
(3) كتاب الروضتين (120/2) مفرج الكروب (248/2).
(4) السلوك (97/1) صلاح الدين والصليبيون ص 221.
(5) كتاب الروضتين (96/2)، صلاح الدين والصليبيون ص 221.

ثامناً: اختلاف صلاح الدين مع الخليفة العباسي:

لقد بلي صلاح الدين، في شخص الخليفة الناصر، بخليفة قوي الشخصية يغار على المظاهر والألقاب أكثر من أي شيء آخر، ذلك أنه على الرغم من أن الناصر أرسل، عندما أصبح خليفة تقليداً جامعاً لصلاح الدين، إلا أنه بعد برهة أرسل له رسالة عن طريق وزيره يعاتبه على أمور بلغته [1]. وقد لخص ابن كثير الخلاف بين الخليفة الناصر والسلطان صلاح الدين بقوله:.. وكتب الخليفة يعتب عليه في أشياء منها؛ أنه بعث في بشارة الفتح بحطين مع شاب بغدادي كان وضيعاً عندهم، لا قدر له ولا قيمة، وأرسل بفتح القدس الشريف مع نجاب ولقَّبَ نفسه بالملك الناصر مضاهاة للخليفة الناصر، فتلقَّى الرسول بالبشر واللطف ولم يُظهر له إلا السمع والطاعة، وأرسل يعتذر ممّا وقع بأن الحرب كانت قد شغلته عن التروي في كثير من الأمور، وأما لقبه بالناصر فهو من أيام الخليفة المستضيء ومع هذا فمهما لقَّبني به أمير المؤمنين فهو لا يُعدل عنه، وتأدَّبَ مع الخليفة غاية الأدب رحمه الله تعالى [2].

تاسعاً: حضور العلماء في فتوحات صلاح الدين:

كان العلماء والفقهاء مع صلاح الدين ولاقى التأييد التام من جموعهم وقد بدأ صلاح الدين فتوحاته بعد حطين بفتح عكا يوم الجمعة الثاني من جمادى الآخرة سنة 583هـ/1187م لأنها طريق الموصل إلى بيت المقدس من ناحية وحتى يضمن بفتحها قطع الإمدادات التي تصل عن طريقها من أوروبا إلى الصليبيين ببيت المقدس من ناحية أخرى وقد شارك في هذا الفتح عديد من الفقهاء والعلماء، يأتي في مقدمتهم القاضي الفاضل، والفقيه جمال الدين عبداللطيف ابن الشيخ أبي النجيب السهروردي، والفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري، فبعد أن تم لصلاح الدين فتح مدينة عكا، قام القاضي الفاضل بتحويل الكنيسة العظمى بها إلى مسجد جامع، وأمر ببناء القبلة والمنبر ثم أقيمت به صلاة الجمعة، ويذكر ابن الأثير في هذا الصدد أنها: أول جمعة أقيمت بالساحل الشامي بعد أن ملكه الفرنج[3] وقد تولى آنذاك الفقيه جمال الدين عبد اللطيف ابن الشيخ أبي النجيب السهروردي أمر الخطبة والإمامة، ثم أسند إليه صلاح الدين بعد ذلك مناصب الخطابة والقضاء والحسبة والوقوف في مدينة عكا [4]، وأما الفقيه عيسى

(1) دراسة وثقية للتاريخ الإسلامي ص 264.
(2) البداية والنهاية (596/16).
(3) الكامل في التاريخ نقلاً دور الفقهاء والعلماء في الشرق الأدنى ص 144.
(4) دور الفقهاء والعلماء في الشرق الأدنى ص 144.

الهكاري فقد كان ملازماً لصلاح الدين في غزواته وفتوحاته، ولهذا فقد خصص له السلطان بعد فتح عكا كل ما يتعلق بجماعة الفرسان الداوية من منازل وضياع، ومواضع ورباع، فأخذها بما فيها من غلال ومتاع تكريماً له واعترافاً بمكانته ومشاركته في الجهاد ضد الصليبيين، وتشجيعاً لاستمراره في البذل والعطاء لهذه الفريضة [1]، فكان هذا التصرف من صلاح الدين بادرة لم يسبقه إليها غيره. وكانت هذه المنحة خلاف ما وزعه صلاح الدين على المجاهدين من أموال الفيء والغنيمة التي اغتنمها المسلمون من وراء هذا الفتح وقد أجمعت المصادر الإسلامية على اشتراك أعداد كبيرة من الفقهاء والعلماء مع صلاح الدين في فتح بيت المقدس على حد تعبير مؤرخيها: قصده العلماء من مصر والشام بحيث لم يتخلف معروف عن الحضور [2]، وكان الشيخ أبو عمر بن قدامة المقدسي، وأخوه الشيخ موفق الدين ابن قدامة، ممن شاركوا هذا الفتح وكانا من العلماء الفضلاء ذائعي الصيت [3].

قال ابن كثير: وكان هو وأخوه وابن خالهم الحافظ عبد الغني وأخوه الشيخ العماد، لا ينقطعون عن غزاة يخرج فيها الملك صلاح الدين إلى بلاده الفرنج وقد حضروا معه فتح القدس والسواحل وغيرها [4]، ولم ينس صلاح الدين في غمرة هذه الفرحة بهذا الفتح العظيم وزيره ومستشاره القاضي الفاضل الذي منعه مرضه من حضور فتح بيت المقدس وكان مقيماً بدمشق، فأرسل إليه صلاح الدين رسالة يبشره فيها بهذا الفتح، ومن خلال كلمات هذه الرسالة يتضح مدى ما كان يكنه صلاح الدين من حب واحترام وتقدير لهذا القاضي الأجل، متمنياً لو أنه كان بحضرته في هذا الوقت حتى تتم فرحته بما منَّ الله به عليه من نصر [5].

وبعد أن منّ الله على صلاح الدين بفتح بيت المقدس في يوم الجمعة 27 رجب سنة 583هـ/أكتوبر 1187م، قام بتفريق الأموال التي أخذت من الصليبيين نظير افتداء أنفسهم وأرواحهم على الأمراء والعلماء والفقهاء الذين حضروا معه هذا الفتح، وبلغت نيفاً وثلاثمائة ألف دينار [6]. ثم جلس بخيمة ظاهر القدس على هيئة التواضع وهيبة الوقار

---

(1) المصدر نفسه ص 144.
(2) المصدر نفسه ص 145 نقلاً عن البداية والنهاية.
(3) المصدر نفسه ص 146.
(4) البداية والنهاية نقلاً عن دور الفقهاء والعلماء والمسلمين ص 146.
(5) دور الفقهاء والعلماء المسلمين ص 147.
(6) المصدر نفسه ص 147.

بين الفقهاء وأهل العلم لتلقي التهاني بعد بهذا الفتح العظيم [1] وقد قام الشعراء من العلماء والفقهاء يهنئون صلاح الدين بهذا الفتح المجيد بقصائد من الشعر يعبرون من خلالها عن مدى سعادتهم بهذا النصر المبين، وكان منهم الشاعر المشهور القاضي ابن سناء الملك [2]، وجدير بالذكر أن القاضيين الفاضل ومحي الدين الزكي كانا ضمن نخبة العلماء والفقهاء الذين تنبأوا واستبشروا خيراً بفتح بيت المقدس على أيدي المسلمين فأرسلا إلى السلطان صلاح الدين يبشرانه بذلك وقد ورد ذلك في قصيدة ابن الزكي التي نظمها بمناسبة نجاح صلاح الدين في ضم حلب إلى الوحدة الإسلامية عام 579هـ/1183م حيث قال:

وفتحكم حلبا بالسيف في صفر ::: مبشر بفتوح القدس في رجب

ويعد هذا البيت من الاتفاقات العجيبة ومن الفأل الحسن نطق به القاضي ابن الزكي وبشر فيه بفتح القدس في رجب وكانت إرادة الله أن يفتح بيت المقدس في رجب سنة 583هـ بعد تلك البشارة بأربع سنوات ولعل تلك البشارات التي بشرت بفتح القدس، كان دافعاً وإلهاماً لصلاح الدين أن يجتهد في فتح بيت المقدس في هذا التوقيت المبارك الذي يوافق ليلة الإسراء والمعراج [3] وقد قدم السلطان صلاح الدين القاضي محي الدين بن الزكي بخطبة الجمعة بالمسجد الأقصى تكريماً له وتشريفاً على بيت الشعر الذي سبق أن مدح به صلاح الدين عند فتحه حلب والذي بشره فيه بفتح القدس في رجب ولمكانته ومكانة أسرته العلمية وصرامته في الحق، وفضائله العديدة في الفقه والأدب، فضلاً عن أنه كان يتمتع بموهبة فريدة وأسلوب بديع في نظم الخطب وإثارة حماس المستمعين له [4].

وهكذا يتضح لنا مما تقدم مدى عظم الدور الذي قام به الفقهاء والعلماء عند فتح بيت المقدس، حيث انضموا إلى صفوف المجاهدين متطوعين بدافع من حميتهم الدينية، جاؤوا من كل مكان وحملوا السلاح وراء صلاح الدين لتحرير القدس الشريف يحدوهم الأمل في النصر أو الشهادة، وكلل الله جهودهم بالنصر وبعودة القدس والمسجد الأقصى إلى المسلمين، ولم يتوقف دورهم بعد ذلك، وإنما كان هذا الفتح دافعاً قوياً لهم ورافعاً لروحهم المعنوية، وهذا ما أدركناه في خطبة القاضي ابن الزكي الذي أخذ يحث

(1) كتاب الروضتين (96/2).
(2) دور الفقهاء والعلماء المسلمين ص 147.
(3) دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى ص 149.
(4) المصدر نفسه ص 150.

المسلمين على مواصلة طريق الجهاد حتى يتم تطهير جميع البلاد الإسلامية من دنس الأعداء، كما أدركنا ذلك أيضاً في الوعظ الذي قام به الفقيه بن نجا [1]، ومن الأعمال الجليلة الأخرى التي قام بها الفقهاء والعلماء في بيت المقدس بعد فتحها ما قام به الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري من صنع شبابيك من حديد للصخرة المقدس لصيانتها من أي عبث بعد أن أزال عنها السلطان صلاح الدين ما أقامه الصليبيون من منكرات وصور وصلبان حولها [2].

عاشراً: من قصائد الشعراء في فتح القدس:

على مثل هذه الغايات الجميلة تُوقف القصائد وفي دوحة الفتح الأعظم [3].

ويُذكر أن شاباً مسلماً كان مأسوراً في بيت المقدس وهو من أهل دمشق كتب إلى صلاح الدين أبياتا يدعوه فيها إلى تحرير بيت القدس يقول فيها: يا أيها الملك الذي لمعالم الصلبان نكس

جـــاءت إليـــك. ظلامـــة ::: تســـعى مـــن البيـــت المقـــدس
كـــلُّ المســـاجد طُهِّـــرت ::: وأنـــا علـــى شـــرفي مُـــنَّجس[4]

1 - قال الشاعر الجلياني:

أبـــا المُظهَّـــر أنـــت المحـــتبى لهـــدى ::: أُخـــرى الزمَّـــان علـــى حُبْـــرٍ بخُبْرتَـــهِ
فلو رآك وقـــد حُـــزْت العُـــلا عمـــر ::: في قُلَّـــة التـــلّ قَضَّـــى كنُـــهَ عبرتـــه
ورآك وأهـــل القـــدس في ولـــه ::: أبـــو عبيـــدة فـــدَّى مـــن مَسَـــرتّه
غـــداة جـــزُّوا النَّواصـــي في قُمامتـــه ::: وأعولـــوا بالتبـــاكي حـــول صَـــخَرتِه
دارت بك المِلَّة الحســـن فـــنحن علـــى ::: عهـــد الصـــحابة في اســـتمرار مرَّتـــه
وأنـــت كاسْـــمِك صـــدِّيق وصـــاحبه ::: الملـــك المظفـــر ســـام في مَبَرتَّـــه
وفي السُّـــلالة عثمـــانٌ يؤيِّـــده ::: عُـــلا علـــيٍّ علـــى إيثـــار نُصْـــرتَهِ
وكـــم لـــديك ذوي قـــربى رقـــوا ::: وكـــم بعيـــد رأى الزُّلفـــى بهجرتـــه
يُشَبَّه القُبْجُ [5] مـــا بـــين البُـــزاة لقـــى ::: مَلْكَ الفـــرنج [2] أخيـــذاً بـــين عترتـــه

---

(1) المصدر نفسه ص 153.
(2) دور الفقهاء والعلماء والمسلمين ص 153.
(3) واقدساه (342/1).
(4) بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية ص 69.
(5) القُبَجُ: ويسكن: الحَجَل.
(2) أي: أسيراً.
(3) المبشرات القدسيات نقلاً عن واقدساه (343/1).

أمـا رأيـت معـالي يوسـف نُسـقت ::: حتى رمـت كـلّ ذي مُلْـك بحسـرته
أضحى لنشر الهُـدى في فـتح منهجـه ::: وبات يطوي العِـدَى في سَـدِّ ثُغْرَتـهِ
واسـتقبح الـرِّجْس ممَّنـوا بمشـهده ::: فاسـتفتح القُـدس محشـوا بزُمرتـه
لكنَّ بـأس صـلاح الـدين أذهلـهم ::: بوقعـة التَّـلّ واستشـرى بَسْـورَتِهِ
تعيا الجوارحُ والفُرسـانُ وهـو علـى ::: بـدء النشـاط عشـياً مثـل بُكُرَتـهِ
يا فاتح المسجد الأقصـى علـى بُهَـمٍ ::: وقـانص الجـيش لا يُحصـى بقفزتـه
أبشر بملـك كظهـر الشـمس مُطلَّـعٍ ::: علـى البسـيطة فتَّـاح بشـرته
حـتى يكـون لهـذا الـدِّين ملحمـةٌ ::: تحكـي النبـوةَ في أيـام فَتْرَتـهِ [3]

2 - أبو علي الحسن بن علي الجويني في فتح المقدس:

جُنْـدُ السـماء لهـذا الملـك أعـوان ::: من شكَّ فـيهم فهـذا الفـتح برهـان
متى رأى النـاس مـا نحكيـه في زمـن ::: وقـد مضـت قبـل أزمـان وأزمـان
هذي الفتـوح فتـوح الأنبيـاء ومـا ::: لهـا سـوى الشُـكرِ بالأفعـال أثمـان
أضحت ملوك الفرنج الصِّـيْد في يـده ::: صيداً وما ضـعفوا يومـاً ومـا هـانُوا
كم من فُحول ملـوك غُـودروا وهُـمُ ::: خـوف الفرنجـة ولـدان ونسـوان
هذا وكم ملـك مـن بعـده نظـر إلى ::: الإسلام يُطوى ويُحوى وهـو سـكران
تسـعون عامـاً بـلاد الله تصـرخ ::: والإسـلام نُصَّـاره صُـمٌّ وُعميـان
فالآن لبَّـى صـلاُح الـدِّين دعـوتهم ::: بـأمر مـن هـو لِلمعـوان معـوان
للنّاصر ادُّخرت هـذي الفتـوح ومـا ::: سمت لها هِمَـمُ الأمـلاك مُـذ كـانوا
حبـاه ذو العـرش بالنَّصـر العزيـز ::: فقـال النـاس داود هـذا أم سـليمان
في نصف شهر غدا للشِّـرك مصـطلماً ::: فطهـرت منـه أقطـار وبلـدن
فـأين مَسـلمةٌ عنـها وإخوتـه ::: بل أيـن والـدهم بـل أيـن مـروان
وَعـدِّ عمـا سـواه فالفرنجـة لم ::: يَبـذُّهم مـن ملـوك الأرض إنسـان
لو أنَّ ذا الفتح في عصـر النبي لقـد ::: تنزلـت فيـه آيـات وقـرآن
يا قُبح أوجـه عُبـادِ الصـليب وقـد ::: غـدا يُبرقعهـا شـؤم وخِـذلان
خزنتَ عند إلـه العـرشِ سـائر مـا ::: ملكتـهُ وملـوك الأرضِ خُـزانُ
فـالله يُبقيـك للإسـلام تحرسـه ::: من أن يضـام ويُلفـى وهـو حـيران
وهـذه سـنةٌ أكـرم بهـا سـنةً ::: فـالكفر في سـنةٍ والنصـر يقظـان
يا جامعاً كلمـةَ الإيمـانِ قـامع مَـنْ ::: معبـوده دون ربِّ العـرش صُـلبان
إذا طـوى الله ديـوان العبـاد فمـا ::: يطوى لأجر صلاح الـدين ديـوان [1]

---

(1) واقدساه (344/1).
(2) الطُّلى جمع: مفرده الطُّلاة: وهي العنف.

3 - وقال الشاعر نقيب الأشراف بالديار المصرية النسّابة الجوّاني:

أتُرى مناماً ما بعيني أبصُر ::: القدسُ يفُتحُ والفرنجةُ تُكسَرُ
وقمامة قُمت من الرِّجس الذي ::: بزواله وزواهما يتطهر
وملـيكهم في القيد مصفودٌ ولم ::: يُر قبل ذاك لهم مليك يُؤسرُ
قد جاء نصُر الله والفتح الذي ::: وعد الرّسول فسبحوا واستغفروا
فُتِحَ الشام وطُهرَ القدس الذي ::: هو في القيامة للأنام المحشر
من كان هذا فتحه لمحمد ::: ماذا يقال له وماذا يُذكر
يا يوسف الصديق أنت لفتحها ::: فاروقها عُمُر الإمام الأطهرُ
ولأنت عثمان الشريعة بعده ::: ولأنت في نصر النبوة حيدرُ
ملك غدا الإسلام من عجب به ::: يختال والدنيا به تتبختر
نشرٌ ونظمٌ طعنُهُ وضرابه ::: فالرُّمحُ ينَظمُ والمهنَّد يَنشُرُ
حيث الرِّقاب خواضع حيث ::: العيون خواشع حيث الجباه تُعفَّرُ
غاراته جُمَعٌ فإن خطبت له ::: فيها السيوف فكلُّ هامٍ منبرُ
إذ لا ترى إلا طُلَى [2] بسنابك ::: تُحدى نعالاً أو دماءً تُهدرُ
تمشي على جُثَثِ العِدَى عُرجا ::: ولا عَرج بها لكنها تتعثر [3]

4 - وقال أبو الحسن علي بن محمد الساعاتي:

عصفت به ريح الخطوب زعازعاً ::: فلقين طوداً لا تخفُّ أناته
هو منقذ البيت المقدس بعدما ::: طالت فما وجد الشفاء شُكاته
بيتٌ تأسسَّ بالسكون وإنما ::: عند الزحافِ تحركات سكناته
أمشتّت الأعداء وهي جحافل ::: عن شمل دين جُمعت اشتاته
أُوتيت عزماً في الحروب مسدَّداً ::: لازيغه يُخش ولا هَفَواته
أحسنت بالبيت العتيق ويثرب ::: ولك الِفعال كثيرة حسناته
هذي سيوفك محرمات دونه ::: لبكائِهنَّ تبَّسَمت جُحُراتُهُ [1]

5 - وقال نجم الدين يوسف بن الحسين بن المجاور قصيدة:

الوقت أضيق من سماع قصيدة ::: موسومة بصفات أغيد أهيف
الجدُّ في هذا الزمان مُبينٌ ::: والهزل فيه مع الغواية مُختف
بالناصر المهدي والهادي إلى ::: سُبُل الجهاد أبي المظفر يُوسُف
المستعين بربِّه والواثق ::: المنصور والمستظهر البِّر الوفي

---

(3) واقداساه (345/1).
(1) واقداساه 345/1.

شُـدت قـوى أركـان ملـة أحمـد ::: وتجمَّلـت بجهـاده في الموقـف
ملـكٌ إذا أمُّ الملـوك جنابـه ::: لاذوا بـأكرم مـن يـومٌ وأشـرف
وإذا أتـوا أسـرى إلى أبوابـه ::: وقَفـو بـأعظم مـن يعـول وأراف
مـولى غـدا للـدِّين أكـرم والـد ::: حَـدِبٍ علـى أبنائـه مترفِّـرف
عـزل الفرنجـة ثم وَلَّـى جَيشَـهُ ::: أعظـم بـه مـن صـارف ومُصـرفِ
قـد أنصـف التوحيـد مـن تثليثهم ::: وأقـام في الإنجيـل حـد المصـحَف
مُغـرىً بتجـريح الرِّجـال لأنَّـه ::: يَـروى أحاديـث العَـوَالي الرُّعَّـفِ
مَلِـكٌ لـه في الحـرب بَحـرُ تَفقُـه ::: ولـه غـداةَ السـلم زُهُـد تَصـوف
وعليـه أُنـزلَ في الجهـاد مُفَضَّـلٌ ::: فلـذاك يقـرؤه بسـبعة أحُـرف
عَزْم وحِلْـم أنسـيا مـا كـان مـن ::: عزم ابـن مـرداس وحلـم الأحنـف
يا صـاحِ قـل للإنكـتير الكلـب دَع ::: عنَك الجنـونَ وخُـذ مقالـة منُصـفِ
القُـدسُ مـا فيـه لسـرجكِ مطمـعٌ ::: كـلا ولا نـور الإلـة بمنطقـي
والمسجد الأقصـى فعنـه تقـصَّ مِـنْ ::: وَقـع الـدَّبابيس الأليمـة تَعـرِف
واستفتِ نفسك فهـي أخبـث ناصـح ::: واتـرك متابعـة اللجَـاجِ المتلـفِ
واعجـب لـرُمحٍ بـالرؤوس مُعمـم ::: واطـرب لسـيف بالـدِّماء مُغلـفِ
يـا أيهـا الملـكُ الـذي لطباعـه ::: وسـيوفه خُلُقـا رِضـى وتعسُّـفِ
للهِ يـوم عَروُبـة إذ أَعربَـتْ ::: سـاعاته عـن نَصـرك المتعَّـرف
سَـنَّت سـيوفُكَ في الـرؤوس ختانـة ::: ذهبـت بمهجـة كـلّ عِلـج أقلَـفِ
آفـاقهم وافـت بأخـذك منـهم ::: يافـافكم مـن حسـرة وتأسُّـف
أوَما ما رأى الأعـلاج حـين دَعوتهـا ::: بلسـان سَـيف في الكريهـة مُلحِـق
لم تستطع عصـيانَ أمـرك بـل أتـت ::: مُنقـادةً طوعـاً ولم تتخلـف
فاسـتدعِ جارَتَهـا وثَـنِّ بأختـها ::: وكـذاك حـتى الأربعـين ونيـف
مـا للسـواحل غـير بحـرك حـافظٌ ::: بشباسـنان أو بصـفحة مُرهـف
هـذا الطـراز الأخضـر اسـتفتحته ::: فزهـا بثـوبٍ مـن عُـلاك مُسـجفِ
أحييـت ديـنَ محمـد وأقَمتَـهُ ::: وسَـتَرتَهُ مـنً بعـد طُـول تكَشُّـفِ
وضـبطت ديـوان الجهـاد بعامـل ::: من عامـلٍ ووبمشـرف مـن مشـرفي
وبجهبـذِ العـزم الـذي لا ينـثني ::: وبنـاظر الـرأي الـذي لم يَطـرِف
فخذ الخـراج مـن البسـيطة كلـها ::: واسـتأد فرضـي جزيـةٍ وموظـف
واقبض علـى الـدنيا بكـفِّ زهـادة ::: وابسُـطْ لرحمتـها جنـاح تعطـف
جـاءت جنـودُ الله تطلـب ثأرهـا ::: وصدورها بـك عـن قليـل تشـتفي
فانهض بهـا وتقاضـى حقَّـك موقنـاً ::: أن الإلـه بمـا تؤملـه حَفِـي
هـم فتيـة الأتـراك كـلٌّ مجفجـف ::: يغشى الكريهـة فـوق كـل مجفجـف

قـــوم يخوضـــون الحِمـــامَ شـــجاعة ::: لا ينظرون إليـــه مـــن طـــرف خفـــي
إن صـــبَّحوا الأعـــداء في أوطـــانهم ::: تركـــوا ديـــارهم كقـــاع صفصـــف
أتـــت اصـــطفيتهم لنُصـــرة ديننـــا ::: لله درُّ المصـــطفى والمصـــطفي[1]

6 - وقال الرّحالة ابن جبير قصيدة:

أطلّـــت علـــى أفقـــك الزاهـــر ::: ســـعود مـــن الفلـــك الـــدائر
فأبشـــر فـــإن رقـــاب العـــدا ::: يُمـــدُّ إلى ســـيفك البـــاترِ
وكـــم لـــك مـــن فتكـــة فيهمـــو ::: حكـــت فتكـــة الأســـد الخـــادرَ
كســـرت صـــليبَهم عنـــوة ::: فللـــه دُركَ مـــن كاســـر
وأمضـــيتَ جـــدك في غـــزوهم ::: فتعســـا لجـــدِّهم العاثـــر
وأدبـــر ملكهمـــو بالشـــام ::: وولَّـــى كأمســـهم الـــدّابر
جنـــودُك بالرُّعـــب منصـــورة ::: فنـــاجز مـــتى شـــئت أو صـــابر
فكلـــهم غـــرِق هالـــكِ ::: بتيَّـــار عســـكرك الزاخـــر
ثـــأرت لـــدين الهـــدى في العـــدا ::: فـــآثرك الله مـــن ثـــائر
وقمـــتَ بنصـــر إلـــه الـــورى ::: فســـمّاك بالملـــك الناصـــر
تبيـــتُ الملـــوك علـــى فُرشـــهم ::: وترفـــل في الـــزرد الســـابري
وتـــؤثر جاهـــدَ عـــيش الجاهـــد ::: علـــى طيـــب عيشـــهم الناصـــر
وتســـهر ليلـــك في حـــقِّ مـــن ::: سَيُرضـــيك في جفنـــك الســـاهر
فتحـــتَ المقـــدَّس مـــن أرضـــه ::: فعـــادت إلى وضـــعها الطـــاهر
وجئـــت إلى قدســـه المرتضـــى ::: فخلَّصـــته مـــن يـــد الكـــافر
وأعليـــت فيـــه منـــار الهـــدى ::: وأحييـــت مـــن رسمـــه الـــدائر
لكـــم ذخَـــر الله هـــذي الفتـــوح ::: مـــن الـــزمن الأول الغـــابر
وخصَّـــك مـــن بعـــد فاروقـــه ::: بهـــا لاصـــطناعك في الآخـــر
محبَّـــتكم أُلقيـــت في النفـــوس ::: بـــذكرٍ لكـــم في الـــورى طـــائر[2]

وروعة هذه القصيدة ليست في سهولتها السَّلِسَة، وخواطرها الصادقة، وعاطفتها الحارة فحسب، فهي مع ذلك كله تُصَوِّر وجهة نظر المسلمين في المغرب الإسلامي نحو صلاح الدين، وتُنبئ أن العالم الإسلامي حينئذ كان جسداً واحداً، وأن الحدود المصطنعة سياسياً بين دولة لا تمنع الامتزاج العاطفي بين من يَدينون بنعمة الإسلام فهم في كل

(1) واقدساه (351/1).
(2) صلاح الدين الأيوبي قاهر العدوان الصليبي ص 285.

مكان يتحدون في الآمال والآلام [1].

الحادي عشر: حصار صور:

حقق صلاح الدين في سنة 583هـ/1187م انتصارات عظيمة ضد الصليبيين، سيطر خلالها على معظم أنحاء مملكة بيت المقدس، ما عدا مدينة صور التي وصفها المؤرخون المسلمون بأنها مدينة حصينة متوسطة في البحر كأنها سفينة، ليس لها طريق إلى البر إلا من مكان واحد له سبعة أبراج [2]. فضلاً عما كانت تتمتع به من أسوار منيعة وأبراج عالية قد امتلأت بالصليبيين الهاربين إليها بسبب الأمان الذي منحه صلاح الدين للصليبيين، مقابل تسليم مدنهم له [3] وإذا كان الصليبيون قد فقدوا في معاركهم ضد صلاح الدين معظم زعمائهم وقادتهم وقعوا بين قتلى وأسرى فإنه قد ظهر بينهم بعض القادة الأكفاء الذين تولوا مهام أمورهم خاصة كونراد مونتفرات [4] الذي وصفه ابن شداد بقوله: أنه كان رجلاً عظيماً ذا رأي وبأس شديد في دينه وصرامة عظيمة [5]، ووصفه سبط بن الجوزي بأنه: كان شجاعاً حازماً [6] وكونراد هذا أو المركيس - كما تسميه المصادر العربية أصبح زعيماً للصليبيين وقبل من بداخل المدينة من الأمراء وفرسانهم أن ينضووا تحت لواء كونراد ويعترفوا له بالزعامة عليهم، مقابل تعهده بالدفاع عنهم وحمايتهم من هجمات المسلمين، كما تقرّر رفض ما عرضه صلاح الدين من شروط أثناء المفاوضات وسارع في إرسال الوفود لطلب المدد والعون من الغرب الأوروبي وحمل عبء الدفاع عن ما تبقّى من الكيان الصليبي في بلاد الشام حتى قدوم الحملة الصليبية الثالثة [7].

واضطر صلاح الدين لرفع الحصار الأول لصور قبل فتح بيت المقدس وعمل كونراد على تقوية استحكامات المدينة وإعدادها للمعركة المنتظرة، فحفر خندقاً في الجانب الشرقي وهو الجانب الوحيد يربط المدينة بالبر، فأضحت المدينة كالجزيرة، وحصَّن أسوارها مما زاد في مناعتها [8]. ولما عاد صلاح الدين إلى حصارها في 22

(1) المصدر نفسه ص 286.
(2) كتاب الروضتين (119/2)، صلاح الدين والصليبيون ص 229.
(3) صلاح الدين والصليبيون ص 229.
(4) المصدر نفسه ص 229.
(5) النوادر السلطانية ص 98.
(6) مرآة الزمان نقلاً عن صلاح الدين والصليبيون ص 230.
(7) الكامل في التاريخ نقلاً عن تاريخ الأيوبيين ص 170.
(8) المصدر نفسه ص 170.

رمضان/من تشرين الثاني وبدأ الحصار بضرب أسوار المدينة بقذائف المنجنيق، واستعمل المسلمون مختلف أنواع الأسلحة لاقتحامها، لكن دون جدوى، فقد صمدت المدينة في وجه الضرب والهجمات الإسلامية البرية والبحرية، عندئذ لجأ صلاح الدين إلى الأسلوب السياسي لإقناع كونراد بالتسليم، إذ كان والده وليم الثالث أسير في قبضة صلاح الدين، فحاول أن يستغله كورقة ضغط في التأثير عليه وهدَّد بإعدامه، لكن هذه المحاولة فشلت أمام تصلب كونراد الذي ردَّ على صلاح الدين بأنه يفضل أن يُذبح هو وأبوه عن أن يسلم جزءاً من المدينة وتجاه هذه التطورات السياسية والعسكرية اضطر صلاح الدين إلى رفع الحصار عن صور في آخر شوال 583هـ/أول كانون الثاني 1188م [1] وكان ذلك أول فشل يتعرض له في أعماله العسكرية ضد الصليبيين منذ معركة حطين [2] ولقد تضافرت عدة عوامل دفعت صلاح الدين إلى فك الحصار عن صور من أهمها:

- كان الوضع النفسي للجيش الأيوبي حرجاً بعد أن جابهته صعوبة في فتح المدينة وقد أشار بعض قادته بأن العساكر بحاجة إلى الراحة.

- دعاء الأمراء الأغنياء والممولين للجيش إلى فك الحصار عن صور؛ لأنهم خشوا أن يقترض صلاح الدين منهم ما ينفقه على أفراد الجيش إذا استمر الحصار، في حين كان رأي صلاح الدين متفقاً مع رأي بعض قادته الآخرين، القاضي باستمرار مرابطة الجيش أمام صور، مع الاتجاه باقتراض الأموال من الأغنياء، لكن هؤلاء ألحوا عليه برفع الحصار.

- انفتاح صور على البحر بعد فشل الحصار البحري الذي ضربه الأسطول المصري عليها، فاستمرت المؤن والعتاد في الدخول إليها.

- تساهل صلاح الدين مع صليبي المدن المفتوحة، والسماح لهم بالتجمُّع في صور، مما رفع معنويات هؤلاء، فتكتلوا للدفاع عن المدينة.

- أدَّت العوامل الطبيعية دوراً آخر في فشل الحصار، إذ جاء شتاء ذلك العام مطيراً، والبرد شديداً، كما تفشَّى المرض في المعسكر الأيوبي [3].

ويُبدي المؤرخون المسلمون أسفهم العميق لفشل صلاح الدين في فتح صور، وأما

(1) النوادر السلطانية ص 138.
(2) الحركة الصليبية (841/2) عاشور.
(3) النوادر السلطانية ص 138.

المؤرخ ابن الأثير - الذي عرف بتحامله على صلاح الدين - حمّل صلاح الدين مسؤولية ما حدث للمسلمين على صور وذكر أنه لم يكن لأحد ذنب في أمر صور غير صلاح الدين، فإنه هو الذي جهز جموع الصليبيين وأمدها بالرجال والأموال من أهل عكا وعسقلان والقدس وغيرها، وذلك بسبب إفراطه في التسامح مع الصليبيين [1]. أما سبط بن الجوزي فيرى أن صلاح الدين ضيع الفرصة على المسلمين الصليبيين إلى صور ولم ينظر في عواقب الأمور، وأنه كان من الواجب عليه عرضهم على الإسلام وإلا ضرب رقابهم بالسيف، كما أنه شبه تلك الأحداث بما حدث في معركتي بدر وأحد، ويبدو أن ابن الأثير تحامل على صلاح الدين، لأنه كان ربيب البيت الزنكي، ولم ينس أن صلاح الدين قضى على ملكهم في الشام، ولا يستبعد أن يكون سبط بن الجوزي قد تأثر بابن الأثير في ذلك[2].

والواقع أن تلك الخطة التي اتبعها صلاح الدين مع الصليبيين والتي تقوم على تأمينهم مقابل تسليم المدن والحصون له، أتاحت لصلاح الدين فرصة الاستيلاء على معظم مملكة بيت المقدس في شهور قليلة، ما عدا أماكن قليلة منها مدينة صور، وصلاح الدين لم يكن أمامه غير اتباع هذه الخطة، إذ لو عمد إلى الاستيلاء على مدن مملكة بيت المقدس عن طريق القوة والمصابرة لطال أمر القتال، هذا بالإضافة إلى أنه قد اختار سياسة التسليم مقابل الأمان عملاً بالشريعة الإسلامية السمحاء [3].

لقد تصرف صلاح الدين طوال حروبه، وكأنه يحاول محاولة واعية أن يجعل نفسه مقبولاً عند رعاياه المقبلين وأن يضع أساس دولة تعيش فيها الديانتان جنباً إلى جنب تحت ظل السلطان، وكان هدف صلاح الدين سحق قوة الصليبيين السياسية، ولم يكن إبادة المسيحيين[4].

لقد أثرت تصرفات صلاح الدين المستمدة من هدى الإسلام العظيم في الساسة الأوروبيين وشعوبهم، لما رأوا من عفوه الكريم وتسامحه النبيل، فكان إسوة حسنة ومثلاً يضرب للناس، وكسب للإسلام بقلبه وسيفه وهذا ما جعل تشرشل يقول عنه إنه من أعظم ملوك الدنيا ودفع الكاتب الإنكليزي ريدر هجارد إلى القول بأنه أعظم رجل على

(1) الكامل التاريخ نقلاً عن صلاح الدين والصليبيون ص 335.
(2) صلاح الدين والصليبيون ص 235.
(3) المصدر نفسه ص 236.
(4) صلاح الدين الأيوبي، قلعجي ص 280.

وجه الأرض [1].

الثاني عشر: استكمال الفتوحات:

1 - فتح الكرك والشوبك:

كانت ستيفاني، صاحبة إقطاع ما وراء نهر الأردن، المجاور لمملكة بيت المقدس من بين الأسرى الذين تَّم افتداؤهم بعد فتح بيت المقدس فطلبت من صلاح الدين أن يطلق سراح ابنها همفري صاحب تينين، وافق صلاح الدين على طلبها لكنه اشترط، مقابل ذلك، تسليمه الحصنين الكبيرين، الكرك والشوبك، التابعين لهذا الإقطاع، ويبدو أن ستيفاني وافقت على شرط صلاح الدين، فأفرج هذا الأخير عن ابنها، وفي حين أوعزت هي إلى حاميتي الحصنين بالاستسلام غير أنهما رفضا ذلك، مما دفعها إلى إعادة ابنها إلى الأسر، تجاه هذا التصرف النبيل، بادلها صلاح الدين بتصرف أنبل، فأطلق سراح ابنها بعد عدة أشهر وحاصر الحصنين، واستمر حصار الكرك والشوبك ما يزيد على السنة، تعرض المدافعون عنهما إلى الجوع والعطش، ولم يستسلموا إلا بعد أن نفذت ذخائرهم، وأكلوا دوابهم، ويئسوا من وصول نجدة تساعدهم على الصمود، وصبروا حتى لم يبق للصبر مجال وكان ذلك في شهر ربيع الأول عام 584هـ/شهر أيار عام 1188م.

2 - الالتفاف نحو الشمال:

بعد فتح المناطق الجنوبية لبلاد الشام واتصالها ببقية المناطق الإسلامية من أيلة في العقبة في الجنوب حتى بيروت في الشمال، باستثناء صور، التفت صلاح الدين بعد ذلك إلى الشمال لفتح مناطق السيطرة الصليبية في إمارتي طرابلس وأنطاكية، وكان ريموند الثالث، صاحب طرابلس، قد توفي كمداً بعد فراره من معركة حطين بوقت قصير، ولم ينجب ذرية، فأوصى بأن يخلفه الابن الأكبر لبوهيموند الثالث أمير أنطاكية، ولكن هذا الأخير كان بحاجة إلى ابنه البكر إلى جانبه للدفاع عن إمارة أنطاكية بابن آخر هو بوهيموند [2] اجتاح صلاح الدين البقيعة بعد أن جاءته إمدادات من سنجار وهاجم حصن الأكراد في شهر (ربيع الآخر/ حزيران، وكان بحوزة الداوية، لكنه جوبه بقوة استحكاماته ومناعته فتجاوزه إلى شواطئ طرابلس وأنطاكية وهاجم أنطرطوس في شهر "جمادى الأولى/تموز" ودخلها، لكن استعصت عليه القلعة، فأمر بوضع النار في البلد

(1) المصدر نفسه ص 282.
(2) مفرج الكروب (271/2) تاريخ الأيوبيين ص 172.

وأحرق جميعه [1] وحاصر حصن المرقب، فامتنع عليه أيضاً، فاتجه إلى بانياس في أقصى شمال إمارة طرابلس، وفتحها، ثم أوغل في إمارة أنطاكية، فأذعنت له القلعة الساحلية جبلة، واستسلمت اللاذقية، وهي أكبر موانئ إمارة أنطاكية وقد غادرها الصليبيون بعد أن عجزوا عن الدفاع عنها وفتح حصن بكسرائيل الواقع على طريق حماة مقابل جبلة [2].

وتحوَّل صلاح الدين بعد ذلك إلى الداخل، واصطحب مع ابنه الظاهر غازي صاحب حلب، فهاجم قلعة صهيون التابعة للاسبتارية، وفتحها عنوة، واستسلمت له حاميتا بكاس والشغر الواقعتان في الشمال الغربي، على نهر العاصي، سرمين وبرزية، وهي آخر ما يقع من القلاع في أقصى الجنوب من نهر العاصي[3].

وبهذه الفتوح، تمت السيطرة على جميع المخافر الأمامية لمدينة أنطاكية، ولم يبق من حصون تابعة لهذه الإمارة سوى بغراس ودربساك في الشمال، فهاجمها صلاح الدين فأذعنت له دربساك الواقعة في جبال الأمانوس، وكانت تابعة للداوية، واستسلمت قلعة بغراس، التابعة للداوية أيضاً وكانت تتحكم في الطريق المؤدي من أنطاكية إلى كيليكية [4] وهكذا أصبحت إمارتا طرابلس وأنطاكية مقصوصتي الجناح، ولم يبقَ سوى مدينتي طرابلس وأنطاكية، فضلاً عن ميناء السويدية واحتفظ الاسبتارية بحصتي المرقب والأكراد، واحتفظ الداوية بأنطرطوس ونتيجة لما آلت إليه أوضاع إمارة أنطاكية، التمس بوهيموند الثالث من صلاح الدين عقد هدنة، يعترف فيها بكل فتوحاته، وكانت العساكر الإسلامية قد أصابها الإرهاق نتيجة القتال المتنقّل والمتواصل، لذلك وافق على التماسه وعقدت الهدنة بينهما ثمانية أشهر [5] وأتاحت هذه الهدنة لصلاح الدين، الالتفاف مجدداً الجنوب، وبعد أن سّرح قسماً من جيشه، هاجم حصني الداوية في صفد والاسبتارية في كوكب، وفتحهما في شهري شوال وذي القعدة عام 584هـ/كانون الأول عام 1188م وكانون الثاني عام 1189م [6].

الثالث عشر: إنّا لم نخلق للمقام في دمشق وإنما خلقنا للعبادة والجهاد في سبيل الله:

(1) النوادر السلطانية ص 129.
(2) النوادر السلطانية نقلاً عن تاريخ الأيوبيين ص 173.
(3) تاريخ الأيوبيين ص 173.
(4) تاريخ الأيوبيين ص 173.
(5) المصدر نفسه ص 173.
(6) النوادر السلطانية ص 152 - 154، تاريخ الأيوبيين ص 174.

في سنة 584هـ دخل صلاح الدين دمشق بعد رجوعه من بعض غزواته وكان دخوله في ربيع الأول، ففرح به المسلمون ودقَّت البشائر وزُيِّن البلد، ووجد الصفيَّ بن القابض وكيل الخزانة قد بنى داراً بالقلعة هائلة مطلة على الشرف القبليّ، فغضب عليه وعزله من وظيفته وقال: إنا لم نُخلقْ للمقام بدمشق وإنما خلقنا للعبادة والجهاد [1]. وهذا الذي عملته مما يثبط النفوس ويقعدها عما خلقت له [2] لقد كانت العقيدة الإسلامية الصحيحة التي تعلمتها الأمة من رسول الله ﷺ هي المهيمنة على حركات صلاح الدين وتصرفاته واختياراته في الحياة، ولذلك قال هذه الكلمة التي تكتب بماء الذهب، إنما خلقنا للعبادة والجهاد، وقبلها في حطين قال لقادة أركانه: لا تقاتلوا من أجلي ولكن في سبيل الله، لقد طهر التوحيد من نفسه ما يعلق بها من أهواء وفتن ونزغ الشيطان، فقد تحدى بأيمانه العميق وفهمه الدقيق لدينه أدعاء المنجمين الذين حذروه من فتح القدس وقالوا له: تفتح القدس وتذهب عينك الواحدة فقال: رضيت أن أفتحه وأعمى، فافتتحها بعد أن كانت بأيدي الفرنج أكثر من تسعين سنة [3]، وأبطل تخرصات المنجمين، فقد كان يصغى فقط لنداء الله ورسوله ﷺ [4] وكان لسان حاله قول الشاعر:

ومما زادني عزاً وتيهاً ::: وكدت بأخمصي أطئ الثريا
دخولي تحت قولك يا عبادي ::: وإن صبرت أحمد لي نبيا

الرابع عشر: وفاة أسامة بن منقذ:

توفي عام 584هـ الأمير الكبير العّلامة، فارس الشام، مجد الدين مؤيد الدولة أبو المظفر أسامة ابن الأمير مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكنانيُّ الشَّيْزَري [5] قال الذهبي: عاش سبعاً وتسعين سنة ومات بدمشق في رمضان سنة 584هـ [6] وله أشعار في مدح السلطان صلاح الدين منها قوله:

والناصر الملك المتوج ناصري ::: وعلاه قد خطت كتاب أماني
قد كنت أرهب صرف دهري قبله ::: فأعاد صرف الدهرِ من أعواني
أنا جاره ويُد الخطوبِ قصيرة ::: عن أن تنال مجاورَ السلطان
ملك يمنُّ على أسارى سيبه ::: فيعيدهم في الأسر بالإحسان

(1) البداية والنهاية (604/16).
(2) حياة صلاح الدين، محمود شلبي ص 111.
(3) الحروب الصليبية مواقف وتحديات ص99.
(4) المصدر نفسه ص 99.
(5) سير أعلام النبلاء (165/21).
(6) المصدر نفسه (165/21).

خضعت لـه صيُد الملوك فمـن يُـرى ::: أقلامـه غـررُ علـى التيجـان
مـلاء القلـوب محبـة ومهابـةً ::: فخلـت مـن البغضـاء والشـنَان
لي منـه إكـرام علـوت بـه علـى ::: زُهـر النجـوم.. ونائـل أغنـائي
قـرن الكرامـة بـالنوال مواليـا ::: فعجـزت عـن إحصـاء مـا أولاني
فنداه أخلف مـا مضـى مـن ثـرويّ ::: وبقـاؤه عـن أسـرتي أسـلاني
فلأهـدينَّ إلى عـلاه مـدائحاً ::: تبقـى عـن الأحقـاب والأزمـان
مِـداحاً أفـوق بهـا زهـيراً مثلمـا ::: فـاق المليـك الناصـر ابـن سـنان
يـا ناصـر الإسـلام حـين تخاذلـت ::: عنـه الملـوك ومظهـر الإيمـان
بـك قـد أعـزّ الله حـزب جنـوده ::: وأذلَّ حـزب الكفـر والطغيـان
لمـا رأيـت النـاس قـد أغـواهم ::: الشـيطان بالإلحـاد والعصـيان
جّـردت سـيفك في العـدا لا رغبـة ::: في الملـك، بـل في طاعـة الـرحمن
فضـربتهم ضْـربَ الغرائـب واضـعاً ::: بالسـيف مـا رفعـوا مـن الصـلبان
وغضـبت لله الـذي الـذي أعطـاك ::: فصـل الحكـم غضـبة ثـائر حـرّان
فقتلتَ مـن صَـدقَ الـوغى ووسمـت ::: مـن نجـيّ الفـرار بذلـه وهـوان
وبـذلت أمـوال الخـزائن بعـدما ::: هرمـت وراء خـواتم الخُـزَّان
في جمـع كـلّ مجاهـد ومجالـد ::: ومبـارز ومنـازل الأقـران
من كل مـن يـردُ الحـروب بـأبيض ::: عضـب ويصـددُ وهـو أحمـر قـان
ويخـوضُ نـيرانَ الـوغى وكأنـه ::: ظمـآنُ خـاص مـوارد الغـدران
قوم إذا شهدوا الـوغى قـال الـورى ::: مـاذا أتـى بالأسـد مـن خَفّـان [1]
لو أنهـم صـدعوا الجبـال لزعزعـوا ::: أركانهـا بـالبيض والخرصـان
فهُـم الـذخيرةُ للوقـائع بالعـداء ::: ولفـتح مـا استعصـى مـن البلـدان
والسعد بشـهر الصـوم فهـو مبشـر ::: لعـلاك بالتأييـد والغفـران
في دولـة عمّـت بنائلـها الـورى ::: فـدعا لهـا بالخُلـد كـل لسـان [2]

وقال أيضاً في صلاح الدين:

حمدتُ علـى طـول عمـري المشـيبا ::: وإن كنـت أكثـرتُ فيـه الـذنوبا
لأني حييـت إلى أن لقيـت ::: بعـد العـدو صـديقاً حبيبـا

وقال أيضاً في صلاح الدين:

(1) خفّان: موضع قبل اليمامة أشب الغياض كثير الأسد.
(2) أسامة بن منقذ، محمد عدنان فيطاز ص 246، 247.

سمعت صروف الدهر قول العاتب ::: وتجنَّبت حربَ المليك الحاربِ
وتجافت الأيام عن مطلوبه ::: ومراده أكرم به من طالبِ
هو من عرفن فلو عصاه نهاره ::: لرماه نقع جيوشه بغيا هب
وإذا سطا أضحت قلوب عُداته ::: تُلوى كمحراق بكفي لاعب
من ذا يناوي الناصر الملك الذي ::: في كفّه بحرا ردى ومواهب
وإذا سرى خلت البسيطة لجّة ::: أمواجها بيض وبيض قواضب
ملك القلوبَ محبة ومهابة ::: فاقتادها طوعاً بهيبة غاضب[1]

وكتب إلى الملك الناصر صلاح الدين بعد مصاف عسقلان سنة 583هـ :

هنَّ يا أطول الملوك يدا ::: في بسط عدل وسطوة وندى
أجراً وذكراً من ذلك الشكر ::: في الدنيا ومن ذلك الجنان غدا
لا تستقل الذي صنعت فقد ::: قمت بفرض الجهاد مجتهداً
وحُبست أرض العداء وأفنيت من ::: أبطالهم ما يجاوز العددا
وما رأينا غزا الفرنج من ::: الملوك في عقر دارهم أحدا
فسر إلى الشام فالملائكة ::: الأبرار تلقاك ملتقى حُمِدا
فهو فقيرٌ إليك يأمل أن ::: تصلح بالعدل منه ما فسدا
والله يعطيك فيه عاقبة ::: النصر كما في كتابه وعدا
فما حباك الورى وألهمك ::: العدل وأعطاك ما ملكت سدى

وله من قصيدة يمدح صلاح الدين:

فما أنت إلا الشمس لولاك لم تزل ::: على مصر ظلماءُ الضلالة سرمدا
وكان بها طغيان فرعون لم يزل ::: كما كان لما أن طغا وتمّردا
فبصَّرْتهم بعد الغواية والعمى ::: وأرشدتهم تحت الضلال إلى الهدى[2]

ومن قصيدة يمدح الملك الناصر صلاح الدين:

قل للملوك تزحزحوا عن ذروة ::: العلياء للملك الهمام الناصر
يعطي الألوف ويلتقيها باسماً ::: طلق المحيَّا في القنا المتشاجر[3]

وأسامة بن منقذ من المعمرين عاش عمراً مديداً، حافلاً بالمكارم والمآثر، والرزايا والخطوب، فقد شهد الحملات الصليبية على بلاد الشام، وشارك في حركة الجهاد والاستشهاد من أجل تحرير أراضي المسلمين من غزاة الغرب في شيزر وما حولها

(1) أسامة بن منقذ ص 108.
(2) أسامة بن منقذ والجديد من آثاره وأشعاره ص 135.
(3) المصدر نفسه ص 160.

وتحت لواء الزنكيين وساهم في الحياة السياسية أيام السلم والحرب على حد سواء إبان العهد الزنكي، وفي أواخر العهد الفاطمي الذي انهارت قواعده على يد الناصر صلاح الدين فجمع مصر والشام في ظل دولة واحدة تمهيداً لتحرير القدس من غاصبيها وقد تم ذلك بحمد الله، وبموت أسامة بن منقذ طويت آخر صفحة من صفحات تاريخ آل منقذ في بلاد الشام وصفه ابن العديم بأنه من الأمراء الفضلاء والأدباء الشعراء الشجعان الفرسان له مصنفات عديدة، ومجاميع مفيدة ومواقف مشهورة ووقائع مذكورة وفضائل مسطورة، وقال ابن تغري بردي: كانت له اليد الطولى في الأدب والكتابة والشعر، وكان فارساً عاقلاً مدبراً، يحفظ عشرين ألف بيت من شعر الجاهلية [1].

الخامس عشر: من أهم الدروس والعبر والفوائد:

من خلال عرض الأحداث السابقة تظهر للباحث عدة دروس وعبر وفوائد في حياتنا المعاصرة منها:

1 - أهمية العلماء الربانيين في إيقاظ الأمة:

إن الأمة في أشد الحاجة لمن يوقظها من نومها، ويخرجها من جهلها وينبهها من غفلتها، فالخير الذي تّم على يدي صلاح الدين كان من أسبابه، حركة العلماء في التربية والتعليم والتوجيه والإرشاد، فالدور الأكبر الذي ينتظر العلماء الربانيين تصفية عقيدة الأجيال القادمة مما شابها من العقائد الباطلة والفاسدة والخرافات والشركيات، وتصفية السنة مما شابها، وتصفية التاريخ الإسلامي مما شابه من الفت لإبراز لآلئ تاريخ أمتنا العظيم ولاستخلاص العبر، وتصفية الفقه مما شابه من الآراء والمحدثات المخالفة، وتصفية الوعظ مما شابه من الإسرائيليات والخرافات وأحاديث القُصَّاص، وتربية الجيل على هذا، هذا هو أسسّ أي إصلاح لإقامة أي نهوض، وينبغي على العلماء أن يوجّهوا المربين إلى إصلاح مناهج التعليم والتربية لإعداد النشء على حب الجهاد وأن يضع نصب عينيه تاريخ القادة العظام الذين دوّخوا الكافرين، أمثال الخلفاء الراشدين، وأبي عبيدة ومعاذ وخالد بن الوليد والمثنى بن حارثة، ونور الدين وصلاح الدين وقطز وبيبرس، وأن يّدرس لهذا النشء معارك الإسلام الفاصلة وإلهاب عاطفتهم من الصغر على حب البذل والعطاء لدينهم وعلى العلماء أن يأمروا بالمعروف وينهوا على المنكر ويواجهوا الشر وهبوط العزائم، ويصونوا الأمة أن يعبث بها كل ذي هوى وكل ذي شهوة، ولابد أن يصلح العلماء اعوجاج الأمة وقادتهم وفيهم الجبار الغاشم والمتسلط

(1) المصدر نفسه ص 30، 31، 32.

وفيهم الهابط الذي يكره الصعود، والمسترخي الذي يكره الاشتداد والمنحل الذي يكره الجّد، والظالم الذي يكره العدل، وفيهم المنحرف الذي يكره الاستقامة، وفيهم ممن ينكرون المعروف ويعرفون المنكر، ولن تعود القدس إلا أن يقود العلماء الربانيين مسيرة الأمة ويوجهون الحكام إلى الخير [1].

2 - تربية الجيل على عقيدة أهل السنة والجماعة:

الدعاة إلى الإسلام والناشدون لتحرير القدس والأقصى لابد لهم من تربية جيل النصر المنشود على العقيدة التي كان عليها الرسول وأصحابه، وتصفية العقيدة مما شابها من العقائد الباطلة والفاسدة والخرافيات والشركيات والبدع، ولله در الإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة القائل: لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، وما أجمل قول القائل: أقيموا دولة الإسلام في قلوبكم تقم لكم على أرضكم. وما سقطت القدس إلا على أيدي أهل البدع الفاطميين، وما ضاعت إلا لما ضاع الولاء، وتحالف رجال الثورة العربية مع الإنجليز ضد المسلمين من الأتراك وما سقطت القدس إلا بعد انحراف الناس عن الجادة وصار ربان السفينة ممن يغيب الإسلام في الصراع ومحال أن تعود القدس على أيدي أناس يسبون صحابة رسول الله ويكفرونهم ويطعنون في الثوابت من هذا الدين وهم ومن على شاكلتهم كانوا الخناجر التي طُعنت بها الأمة، والله يفتح مغاليق الأمور لمن علم في قلبه الصدق والعزيمة وسلامة النهج وصفاء التوحيد والولاء [2].

3 - تحرير الولاء لله ورسوله والمؤمنين:

وهذا بيت القصيد لابد أن يعلمه القاصي والداني الصغير والكبير من هذه الأمة وبغض لهؤلاء اليهود والنصارى لكفرهم أولاً، ولأنهم اغتصبوا ديارنا ثانية، وتصريحات زعماؤهم تدل على أن الحرب بيننا وبينهم دينية، فمثلاً حكام أمريكا حبهم وولائهم لإسرائيل من منطلق ديني توراتي بحت فهم يقدسون التوراة "العهد القديم" مثلما يقدسون الإنجيل "العهد الجديد" وقيام إسرائيل وحمايتها قام على أساس التزام ديني من إنجلترا وأمريكا، فعار على الأمة أن تسلم رقابها ورقاب أبنائها وثرواتها وأراضيها إلى أعدائها وعار على الأمة أن تتنكر لإسلامها وتتسّول نفايات الفكر اليوناني الروماني

---

(1) واقدساه (521/3، 522، 523).
(2) واقدساه (526/3).

العفن عار على الغني أن يتسّول [1] وقد تحدث الرؤساء الأمريكيون عن ماذا تعني إسرائيل بالنسبة لهم، فقد أصدرت جريدة هيرالد تريبيون الدولية تقريراً خاصاً في عددها رقم 35818 بتاريخ 1998/04/29م ونشرت فيه كلمات لعشرة رؤساء لأمريكا، على مدى خمسين عاماً منذ نشأة إسرائيل حتى الآن ويؤكدون في كلماتهم ضمانهم لأمن إسرائيل وذكرت الجريدة في تعليقها؛ منذ تحقيق الاستقلال سنة 1948م، كان لإسرائيل مكان خاص في قلوب الأمريكيين وفي قلوب رؤساء أمريكا، ففي كل إدارة كان الرئيس يعترف بأهمية أمن إسرائيل بالنسبة للأهداف القومية الأمريكية [2].

- **قال بيل كلينتون**: أمريكا وإسرائيل يربطها ميثاق خاص وعلاقتنا فريدة من نوعها بين كل الأمم، فكما هو الحال في أمريكا، فإن إسرائيل تتمتع بديمقراطية قوية كرمز للحرية وهي واحة للاستقلال، وملجأ للمظلومين والمضطهدين.

- **جورج بوش**: لقد تمتعت الولايات المتحدة وإسرائيل لأكثر من أربعين سنة بصداقة مبنية على احترام متبادل، والتزام بمبادئ الديمقراطية، ويبدأ استمرارنا بالبحث عن السلام في الشرق الأوسط بإدراك أن الروابط التي تُوحّد بين دولتينا لا يمكن أن تنفصم.

- **رونالد ريجان**: يثبت الرجال والنساء الأحرار بإسرائيل كل يوم قوة الشجاعة والإيمان، وبالرجوع لسنة 1949م عندما وجُدت إسرائيل، ادّعى النّقاد أن الدولة الجديدة لا يمكن أن تستمر، والآن لا يشك أحد أن إسرائيل هي أرض الاستقرار والديمقراطية في منطقة الطغيان والاضطرابات.

- **جيمي كارتر**: بقاء إسرائيل ليس مجرد قضية سياسية ولكنه التزام أدبي، وهذا هو إيماني العميق الذي أرتبط به، وهو الإيمان الذي يشاركني فيه الأغلبية العظمى من الشعب الأمريكي، فإن إسرائيل القوية الآمنة ليست مجرد اهتمام الإسرائيليين ولكنه اهتمام الولايات [3] المتحدة والعالم الحر كله.

- **جيرالد فورد**: التزامي بأمن ومستقبل إسرائيل مبني على مبادئ أساسية، وهو اهتمام شخصي، كإنسان متنور "مثقف" كما أن دورنا في مساندة إسرائيل يُشّرف تراثنا

---

(1) واقدساه (494/3).
(2) المصدر نفسه (491/3).
(3) واقدساه (492/3).

الوطني [1].

- **ريتشارد نيكسون**: الأمريكيون يعجبون بالشعب الذي يحفر الصحراء ويحّولها لحدائق، لقد أثبت الإسرائيليون بدلالات يقبلها الأمريكيون أن لديهم الشجاعة والوطنية والمثالية، والولع بالحرية، لقد رأيت ذلك وأومن بذلك [2].

- **جون كنيدي**: إسرائيل لم تُخلق لتختفي، بل ستبقى، وتزدهر، إنها وليد الأمن والوطن للشجعان ولن تنكسر بالافتراءات، أو بإفساد معنوياتها؛ إنها تحمل درع الديمقراطية، وتشهر سيف الحرية[3].

- **دوايت إيزنهاور**: لقد أنقذت قواتنا بقايا الشعب اليهودي بأوروبا من أجل حياة جديدة، وأمل جديدة في الأرض المتجددة ونحن مع كل الرجال ذوي العزيمة الصادقة وأحيي الدولة الصغيرة، وأتمنى لها الفلاح [4].

- **هاري ترومان**: لدي إيمان بإسرائيل قبل تأسيسها كما أن لدي إيماناً بها الآن وأعتقد أنه سيكون لها مستقبل متألق أمامها، ليس لمجرد أمة مستقلة جديدة ولكن تجسيد للمثاليات العظمى لمدنيتنّا [5].

4 - وحدة الأمة على أساس من وحدة العقيدة:

قال تعالى:**{إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفاً كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ}** (الصف: 4) الأمةَ المتراصة أقوى عند النزال من جبهات تلتقي وتفترق وتسير وتقف، تجمعها مصالح آنية إنها سنة الله في الحياة عندما تكون الأمة متوحدة على أساس من العقيدة تكون أقوى وأعزّ حتى ولو قلّ العدد وهذا واضح من حركة التاريخ، فشتان بين مسيرة يدفعها هوى وتصورات بشرية، وبين مسيرة تدفعها قواعد ربانية شتان بين أمة تنير منهاج الله دربها وأقوام يعطيهم الهوى بصيصاً من نور ثم ينطفئ، فاللقاء في المعارك الفاصلة مع الشيعة الرافضة لا يمكن ذلك، فصلاح الدين تخلص من الدولة الفاطمية ثم استطاع بعد ذلك تحرير بيت المقدس بعد القضاء على الفكر الشيعي الرافضي، فالتاريخ يعلمنا دور الباطنية والشيعة الرافضة في خيانة الأمة وقتل مجاهديها وعرقلة الحركات الجهادية ضد الصليبيين على مدار التاريخ الإسلامي وفي التاريخ

(1) المصدر نفسه (492/3).
(2) المصدر نفسه (492/3).
(3) المصدر نفسه (493/38).
(4) المصدر نفسه (493/3).
(5) المصدر نفسه (493/3).

الحديث، تحالفوا مع أمريكا على حساب أفغانستان والعراق ومصالحهم المذهبية فوق كل شيء.

إن أصحاب البدع مثل العقارب يدفنون رؤوسهم وأبدانهم في التراب، ويخرجون أذنابهم فإذا تمكّنوا لدغوا وكذلك أهل البدع، هم مختفون بين الناس، فإذا تمكنوا بلغوا ما يريدون [1].

5 - الرؤية الإسلامية للمعركة:

إن راية الإسلام هي حياتنا وأملنا، نور أبصارنا وبصيرتنا وهي الرؤية الوحيدة لمعاركنا القادمة، إن اليهود والنصارى يحاربوننا بالتوراة حرباً دينية تحت شعار الصليب والنجمة فلا نحاربهم إلا بالقرآن وإذا رجعوا إلى تعاليم التلمود رجعنا إلى البخاري ومسلم، وإذا قالوا: نعظّم السبت، قلنا: نعظمّ الجمعة، وإذا قالوا: الهيكل، قلنا الأقصى، وإذا قاتلونا تحت راية اليهودية والنصرانية قاتلناهم تحت راية الإسلام [2]، يقول جمال حمدان: قبل الإسلام لم يكن عرب الجزيرة أمة، ولا كان لهم تاريخ حتى أمة بلا تاريخ لم يكونوا، بل مجرد حفنة أو شرذمة من القبائل المتحاربة المتعاركة المتطاحنة المتعددة اللهجات وأحياناً اللغات، وهي إن لم تكن تقع خارج فإن لها تاريخ فولكلوري على أكثر تقدير [3]. ويقول: لقد خرج العرب من الصحراء ودخلوا التاريخ بفضل الإسلام وما كان لهم هذا ولا ذاك بدونه، لم يكن الإسلام بالنسبة للعرب رسالة من السماء فقط، ولكن نجدة من السماء [4] ويقول: الإسلام جاء ليبقى. ويقول: عودة الإسلام ليقود من جديد [5].

كانت رآية نور الدين وصلاح الدين في معاركهم هي الإسلام وانضوت تحتها الشعوب الإسلامية من عرب، وترك وأكراد وفرس وغيرهم فحققت تلك الانتصارات الرائعة.

6 - استراتيجية إسلامية بعيدة المدى وكوادر علمية تحيط بالواقع علماً:

إن تحرير القدس على يدي صلاح الدين يعلمنا أن المسيرة لتحريره من جديد لها خطها ونهجها، ولها أهدافها ووسائلها وكلها أهداف ووسائل شرعية، ولكنها لا يمكن أن

---

(1) واقدساه (490/3).
(2) المصدر نفسه (495/3).
(3) المصدر نفسه (496/3).
(4) واقدساه (496/3).
(5) المصدر نفسه (496/3).

تسير دون نهج مفصَّل واضح، يسمح لأفرادها أن يعرفوا ماذا يريدون قال تعالى:{وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ} (الأنفال: 60). ولابد من توضيح جملة من الحقائق.

أ - من هم أعداؤنا؟

ب - كيف يفكر كل عدو من أعدائنا، وما هي إمكانياتهم؟

ج - ماذا أعّد كل عدو من أعدائنا؟

د - هل أعددنا أنفسنا لمواجهة التحديات؟ لماذا نجح العدو في تحقيق أهدافه؟

س - لماذا نجح العدو في تكبيل الأمة بالأغلال؟ وإجبارها على التسليم له، وقد اغتصب مقدساتها وأرضها وثرواتها وسخر من عقيدتها؟

ش - لماذا تقف الأمة موقف السلبية تجاه هذا الخطر الماحق الذي يتهّدد وجودها؟

إن السبب يكمن في جهل الأمة بدينها، وبرسالتها التي من أجلها خُلقت واستُخلفت في هذه الأرض، فترتب على ذلك فساد عقائدي وسياسي وسلوكي وأخلاقي ووقعت في الحرام، وأكل الحرام وتعطيل فرائض الله، وعدم تحرير الولاء والبراء [1]. والحل ممكن مع صدق النية واللجوء إلى الله عز وجل ويمكن الاستفادة من التجارب التاريخية لإعداد خطة استراتيجية طويلة المدى في مواجهة هذه التحديات المعاصرة [2]، استراتيجية مستمدة من "هوية الإسلام" التي ضعنا يوم أن ضيّعناها، قال تعال:{صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ} (البقرة، آية: 138).

7 - توبة الأمة الإسلامية وعودتها إلى الله عز وجل وبعدها عن المعاصي:

إن نصر الله سبحانه وتعالى لا يتنزل على أمة ماجنة عابثة لاهية غافلة شاردة بعيدة عن الله ورسوله، لا ينزل نصر الله على أمة تغوص في مستنقع المعاصي الآسن وتتمرد على منهج ربها أمة تقلب الموازين وتسير ضد السنن الربانية، إنما ينزل النصر على أمة صابرة تعلم أنها إنما تنتصر على عدوها بطاعتها لله ومعصية عدوها له وتعلم أن الله أعزها بالإسلام، فإن ابتغت في غيره أذلها الله عز وجل، فالنصر يحتاج إلى تبتل ودموع وقنوت وضراعة إلى الله عز وجل، فاسلوا ليلة بدر عن بكاء النبي ﷺ وصلاته

(1) واقدساه (510/3).

(2) كيف نفكر استراتيجياً نقلاً عن واقدساه (512/3).

وسلوا ليلة الأحزاب وكل معارك الأمة [1]، فالرجوع إلى الله من أسباب النصر العظيم.

8 - الجهاد في سبيل الله الطريق الوحيد لإعادة القدس:

إن الطريق الوحيد لتحرير الأراضي المحتلة هو طريق الجهاد في سبيل الله الذي يمثل جوهر الأمن في أمتنا وذروة سنام ديننا، إنه باب من أبواب الجنة، إنه انطلاق من قيد الأرض وارتفاع من ثقلة اللحم والدم وما كانت الأمة أن تحمي وجودها ومقدساتها إلا بعبادة الجهاد في سبيل الله هذه العبادة التي مارسها نور الدين وصلاح الدين كانت من الأسباب للتصدي للغزو الصليبي قال تعالى:**{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الفَوْزُ العَظِيمُ}** (الصف، آية: 10 - 12).

ومن الدروس والعبر والفوائد، أهمية التوكل على الله والثقة فيه واليقين بنصره للمؤمنين، والتعامل مع سنن الله واستيعابها وفهمها كسنة التغيير للنفوس، وسنة التدافع وسنة الله في النصر والهزيمة ومعرفة الأسباب المعنوية للنصر، كالإيمان بالله وتقواه، وإرادة الجهاد، والإخلاص، والتوكل، والصبر والوحدة والشورى والذكر والدعاء، والطاعة والشجاعة والثبات، والأسباب المادية للنصر، كالإنفاق وإعداد العدة والسلاح، وإعداد المجاهدين عسكرياً والرباط، والتخطيط والأخذ بمبادئ الحرب، كاختيار المقصد وإدامته، وحشد القوى، والاقتصاد بالقوة، وإدخارها، والمباغتة، والتعرض والمرونة والأمن والتعاون والمطاردة وكسنة الله في إظهار الحق وإزهاق الباطل، والصراع بين الحق والباطل وسنة الله في عقاب الأمم ومعرفة أسباب العقاب الإلهي للأمم بالاستئصال، كالكفر بالله عز وجل، وإنكار يوم الجزاء، وإسناد شركهم ومعصيتهم لمشيئة الله اتباعاً للظن، وإيذاء الرسل بشتى أنواع الإيذاء وتكذيب الأمة بعد مجيء الآيات التي تطلبها، واستعجال العذاب، والجدال بالباطل والاشتغال بالدنيا ونسيان الآخرة، والإسراف، والترف، والبطر، والاستكبار، والمكر، والصد عن مساجد الله والذنوب... إلخ.

* * * * *

(1) واقدساه (485/3).